726

روايات عبير

WWW.REWITY.COM

مـــرمحـــوريـــة

Emma Wilson

ذكْرياتُ فتَاة

الأصليَّة

روايات عبير

«ذكْرياتُ فتاة»

المشاعرُ الصَّادقة تبقى خالدة لا تتأثّر بمرور الوقت. إلا أنَّ هُناكَ بعضُ الأحْداث التي قد تُؤدّي إلى توتّر العلاقات. وهذا ما حدثَ مع «هاربيت» في مَطْلع صِباها عندما غزَا «أندريه» قلبَها والذي يتمتّع بشخصية ووسَامة فذّة. وبعد قصة حُبٍّ متأجّجة اختفى «أندريه» فجأةً من حياتها دون سابق إنذار تاركًا وراءه «هاربيت» الجَريحة في الوقت الذي لم تكن لتعرفَ فيه شيئًا عن حياته. وعندما التقت به مجددًا بعد غياب ثماني سنوات ظلَّ الماضي يقفُ حائلاً بينهما. إلا أنها اكتشفتْ سرَّ هذا الغموض في حياته، فهل تَسْتعيد ثقتها به مرَّة أخرى وتَلْتمس له العذْر؟

ثمن النسخة

لبنان	3000 ل.
سوريا	100 ل.
الأردن	1.5 دينار
السعودية	10 ريال
الكويت	750 فلس
الإمارات	10 دراهم
البحرين	1 دينار
قطر	10 ريال
مسقط	1 ريال
مصر	6 جنيه
المغرب	30 درهم
ليبيا	5 دينار
تونس	2.5 دينار
اليمن	300 ريال

ISBN 995338061 -9
9 789953 380612

العنوان الأصلي لهذه الرواية
Love In The Dark

تأليف
Emma Wilson

الغلاف بريشة الفنان
Patrice Gordon

www.rewity.com
مرموزية

ذكريات فتاة

(726)

الناشر
المركز الدولي للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

الإدارة العامة والتوزيع
تليفون: **00 961 9 212 666** – فاكس: **00 961 9 212 665**
ص.ب **374** جونيه – لبنان
Email: info@inter-press.org www.inter-press.org

وكلاء التوزيع
دار ميوزيك – دار البشير – دار إي بي سي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع منعًا باتًا نقل أي جزء أو قسم من هذا الكتاب وبأية وسيلة مرئية أو صوتية... إلخ
إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

- 5 -

- 1 -

كان الباب مردودًا فلم تحتج إلى المفتاح، ولما دفعته فاحت رائحة قوية من العفن والرطوبة أثارت اشمئزازها كأنها رائحة تفاح فاسد. لم ترَ من الأثاث سوى طاولة على جانبيها مقعدان طويلان من الخشب، وكرسي هزاز عتيق مهترئ قرب الموقد المحاط بالحُفَر الذي رأت فوقه حنفية قديمة، اعتقدت أن موضتها اندثرت منذ سنين، وكانت أرضية الغرفة الحجرية مغطاة بأوراق شجر، وبقايا أخرى دخلت ولا ريب من فتحات النوافذ. وفي الزاوية علامات تدل على أن مخلوقات غريبة احتلت المكان من قبل وخلفت فيه هذه النفايات. كان الهواء منعشًا بالنسبة إلى الحرارة في الخارج، وبسبب قميصها الملتصق بظهرها العرقان أحست برعشة برد في جسمها. لم يكن البيت نظيفًا منذ استعماله لآخر مرّة، وقد غطى رماد الموقد كل شيء بطبقة خفيفة من الغبار.

أحست «هارييت» بخيبة أمل تلسع قلبها. هل من المعقول أن تبقيا هنا؟ إن المكان قذر ورطب. ثم ما هذا الحفيف الذي تسمعه؟ جرذان؟ وبحركة لا شعورية، رفعت قدميها عن الأرض بالتناوب، وتملكتها رغبة في أن تطوي حافتي بنطلونها حول كاحليها! أين البيت الريفي النظيف الذي توقعته، البيت الأبيض الخلوي المشيد في وادي «دوردون» الشهير بعُرُش العنب وفطائر الباتيه، حسبما جاء في كتيب الدعاية الذي اطلعت عليه؟ كيف يمكن أن يباع بيت مهجور كهذا على أساس أنه مكان صالح للسكن؟ كيف جرؤ أحد على أن يبيعها إياه؟

كانت قد تركت «سوزان» في السيارة لكنها سمعت خطواتها على الممر تقترب منها، فاستدارت إليها وهي تحاول إخفاء شيء من الحنق والخيبة. لقد مرّت «سوزان» بظروف عصيبة في الأسابيع الأخيرة، وأملت «هارييت» الآن

ألا يفسد منظر هذا المكان كل الجهود الطيبة التي بذلت من أجل راحتها. بدت فكرة ممتازة أن تصطحب ابنة أختها إلى جنوب «فرنسا» لبضعة أشهر كي تغير جوها السابق كليًا، وكانت بادرة لطيفة من «تشارلز»، رب عملها، أن يمنحها هذه الإجازة. لكن كل ما ادخرته من مال دفعته ثمنًا لهذا المكان، لكونها عدّلت على تأكيدات الوكالة في «باريس» بأن هذا البيت الريفي في «روشلاك» يطابق المواصفات التي تريد، والآن عندما اكتشفت الحقيقة المزيفة شعرت بإهانة مرّة. وسمعت «سوزان» تقول بصوت متفائل:

– أهذا هو المكان؟ فأجابتها «هاربيت» متنهدة:

– نعم، مع الأسف. تخطتها الصغيرة ووقفت بالباب تسألها:

– لماذا مع الأسف؟ نظرت إليها «هاربيت» كأنها لا تصدق ما تسمع وأشارت بيدها قائلة:

– هل السؤال ضروري؟ فردت «سوزان» ببساطة:

– صحيح أنه قذر، لكن هذا ليس مهمًا. أقصد أننا نستطيع تنظيفه بسرعة. علقت «هاربيت» بصوت خائب:

– إنه رطب! ألا ترين هذه البقع على الحائط؟ إني أخاف من التفكير في ما ينتظرنا في الطابق العلوي! وبالنسبة إلى الأثاث... اجتازت «سوزان» أرض الغرفة دون أن تبالي باحتمال وجود ضيوف غير مرغوب فيها، وسألتها:

– هل تجولت في الداخل؟ ثم فتحت بابًا لم تنتبه له «هاربيت» وأردفت:

– هذه غرفة الجلوس. هل تُدعى كذلك باللغة الفرنسية؟ أجابت «هاربيت» آليًا:

– يدعى الصالون. ثم نظرت حولها واجمة. وأردفت:

– «سوزان». انتبهي أين تضعين قدميك. سمعت خشخشة عندما دخلت.

– لعلها فئران الحقل التي من عادتها احتلال البيوت المهجورة. أين الدرج؟

– أوه يا «سوزان» لا أعرف! تنهدت «هاربيت» ثانية تنظر حولها حائرة ثم قالت حانقة:

– إنها غلطتي وحدي. كان يجب أن أصر على معاينة هذا المكان قبل أن أدفع فلسًا واحدًا. انتظري ما سوف أفعله بالسيد «فروند» عندما أمسك به! لا أعتقد أنه ذهب في حياته إلى أبعد من جنوب «أورلينز». عادت «سوزان» إلى المطبخ وقالت تواسيها:

– لماذا تغضبين هكذا يا «هاري»؟ هناك مقعدان لائقان في الداخل وطاولة زينة. لسنا في آخر الدنيا. أعتقد أنه منزل رائع. يمكنك أن تشاهدي الحديقة خلف البيت، كما يوجد جدول... فقاطعتها «هاربيت»:

– أتصور أنها مغمورة بالأعشاب البرية... ولا تناديني «هاري»! ابتسمت «سوزان» ابنة الرابعة عشرة وقد بدا النمش واضحًا في شحوب وجهها، فالأسابيع القليلة الماضية سلبت لونها الشاحب أصلاً، وسرّ «هاربيت» جدًا أن تراها تبتسم هكذا. وإذا كان البيت يثير فيها هذه الحماسة، فلا يمكن أن يكون سيئًا إلى هذا الحد. وقالت «سوزان» تعلق على اعتراض خالتها السابق:

– أنت لا تحبين أن أناديك خالتي «هاربيت»، أليس كذلك؟ فانفرجت أسارير خالتها وقالت باسمة:

– هذا صحيح، إنما أفضل أن تناديني باسمي مجردًا. «هاربيت» فقط.

– حسنًا، أنت من اليوم فصاعدًا «هاربيت» فقط. فضحكتا معًا وأردفت «سوزان» بصوت مرتجف بعض الشيء:

– لنتكلم جديًا، البيت ليس سيئًا كما تتصورين. إني أحبه وقد سئمت الأجواء الأخرى التقليدية. تشاغلت «هاربيت» بتفحص ما حولها لتعطي «سوزان» وقتًا تتغلب فيه على حزنها العابر... كانت هناك أبواب أخرى ففتحت أحدها بوجل، وتنفست بارتياح حين رأت درجًا خشبيًا يتعرج إلى

www.rewity.com

الطابق العلوي. أعلنت بجفاف وهي تصعد أول درجة:

– وجدت السلم! كان بلا درابزين والدرجات عالية جدًا، مما جعل «هاربيت» تستبعد فكرة تغطيتها بالسجاد. لكنها كانت متينة على الأقل توصل إلى شقة مربعة ذات سقف ينحدر بشدة في اتجاه نوافذ صغيرة بينما الأرضية الخشبية خشنة وغير متساوية. كان هناك هيكل سرير متداع ودواسة بالية، ومنضدة قديمة للاغتسال عليها طشت وإبريق مشققان. رائحة الفاكهة الفاسدة كانت أقوى هنا، وحرارة الشمس تحرم الغرفة من الهواء وتلفها بجو خانق قابض للنفس. وخيل إلى «هاربيت» أن النوافذ سليمة على الأقل، لكنها عندما حاولت فتحها استعصى عليها ذلك بسبب خشبها المنتفخ. «سوزان» تبعتها إلى فوق، وسمعتها تهتف بشوق:

– انظري! يوجد فراغ في السقف كأنه علية، وهناك باب خفي. نظرت «هاربيت» حولها بضيق وهي تلف شعرها الطويل الفاتح حول أذنيها بيد لا مبالية. كانت «سوزان» تومئ إلى فتحة مربعة في السقف المفتت، فلمحت «هاربيت» سلمًا خشبيًا مسنودًا إلى الحائط قرب السرير. تركت النافذة العنيدة واقتربت لتقف تحت الفتحة، لكنها قطعت على «سوزان» رغبتها في مواصلة الاستكشاف، إذ نظرت إلى ساعتها وقالت:

– قاربت الساعة الخامسة إلا ربعًا. إذا أردنا قضاء الليل هنا، وأنا لست واثقة بصواب ذلك، يجب أن ننشط لتنظيف الطابق السفلي وترتيبه. حدقت إليها «سوزان» قائلة:

– هل تفكرين في الرحيل؟ فردت «هاربيت» بهدوء:

– ليس هذا بالضبط. لكن عليك أن تعترفي بأن المكان ليس كما توقعنا أن يكون.

– لا يهمني.

– تقولين ذلك لأنك...

– بل أعني ما أقول. فهي مغامرة بالنسبة إليّ وقد نمت في أماكن أسوأ! يالإلهي. عندما ذهبت إلى مخيم الكشافة... فقاطعتها خالتها بحزم:

– أنا لم أنفق آلاف الفرنكات لأحصل على بيت كهذا لا يصلح إلا كمضرب للخيام. وحين رأت وجه «سوزان» يتقطب أضافت بسرعة:

– ربما استطعنا أن نفعل شيئًا بشأن البيت، لكن هذه الليلة يجب أن نجد نزلا ننام فيه ريثما يتسنى لي الاتصال بالسيد «فروند»... زمت «سوزان» شفتيها واعترضت بامتعاض:

– لكننا قررنا أن نخيم هنا! وأحضرنا أكياس نومنا. فقالت «هاربيت» تذكرها وهي تشير إلى الخلف:

– كما تلاحظين يوجد سرير واحد، ولا أسمح حتى لكلب بأن ينام على ذلك الفراش. كما أن الهواء فاسد ويجب فتح النوافذ لمدة كافية. تجاهلت نظرة الضياع التي ارتسمت في عيني «سوزان»، وهبطت السلم. وهي تحدث قرقعة على الدرجات بنعليها المصنوعين من الفلين، ودخلت المطبخ حيث الهواء أكثر نقاوة. لحقت بها «سوزان» وتفقدتا الغرفة معًا، وعادت «هاربيت» تقول بإصرار:

– يجب أن تعترفي بأنه رهيب. فأحنت «سوزان» كتفيها وسألت:

– أين سنمكث إذن؟ وماذا ستقولين عندما تكلمين السيد «فروند»؟ هزت «هاربيت» رأسها فهي نفسها لا تعرف ماذا ستقول... هل تقدر أن تسترد منه بعض المال المدفوع؟ إنها تشك في ذلك، إذ كان عليها أن تتفقد العقار قبل شرائه، ولا تسمح لنفسها بأن تنخدع بأساطير دعائية عن الكرمة والقصر، وأمسيات الاسترخاء على ضفاف النهر وهي ترشف الشراب المثلج. وقالت بصدق:

– لا أعرف الآن كيف سأتصرف. لاحظت الغبار الذي لطخ قميصها وعبرت الغرفة بحذر على الأرض الملبئة بالحفر، وخرجت إلى ضوء الشمس تتنفس

www.rewity.com

بعمق، ثم فكت زرًا ثانيًا أظهر عمق فتحة صدرها التي ما جرؤت على عرضها وهي في بلدها. كانت السيارة متوقفة على الدرب وراء السياج الشائك المحيط بالحديقة، والهدوء شاملاً والوقت يؤذن بالغروب. ولدى اقترابها من ممر مظلل بالأشجار أحست بنشوة كالتي تحسها «سوزان». لكن حتى هذه الفسحة الأمامية من الحديقة كانت تنبت فيها الأعشاب والشجيرات بفوضوية. وما بدا لها عملاً بسيطًا قبل هنيهة اتخذ الآن أبعادًا كبيرة. فجدران المنزل تحتاج إلى طلاء إضافة إلى التصليحات الأخرى، وما كان أغباها عندما سمحت للورد والمتسلقات أن يعميا بصرها عن هذا الواقع. أجل، لم تلحظ الأعشاب التي تصل حتى الركب، ولا الأشواك الخانقة أو العليق المهدد بخدش الأرجل. وسألتها «سوزان» بشوق وهي تدير المفتاح في القفل الصدئ:

– سنعود إليه، أليس كذلك؟ رمقتها خالتها بأسى وقالت:

– سنضطر إلى ذلك على الأرجح، أو قد نعود إلى بلدنا. ارتجفت شفتا «سوزان» وقالت متوسلة:

– لن تفعلي ذلك... أقصد أنه لا يجب أن نفعل ذلك... قطبت «هاربيت» بإذعان وقالت موافقة:

– سنعود على الأرجح. هيا بنا. أنا عطشى. هناك علبة من عصير الليمون في السيارة على ما أظن. أحست «هاربيت» بمزيج من التعب والتشاؤم. كانت تقود السيارة منذ الصباح الباكر والشوق يحثها على الوصول إلى وجهتهما المنشودة، لكن كل آمالهما فقدت رونقها، وحتى استياؤها من السيد «فروند» تحول الآن إلى غضب على نفسها. متى ستتعلم أن الناس ليسوا دائمًا كما يبدون؟ تقاسمت علبة العصير مع «سوزان» متظاهرة باهتمام لم تكن تشعر به إطلاقًا. استعانت بالخريطة التي فردتها على مقود السيارة وقالت وهي تشير بدقة إلى مكانهما:

– نحن الآن على بعد ثلاثين كيلومترًا من «بيناك» وأظنها أقرب مدينة إلينا، لكن القرية أقرب بالتأكيد وتدعى «روشلاك» هل علينا برأيك أن نحاول إيجاد مكان فيها؟ أجابتها «سوزان»:

– بكل تأكيد. كان واضحًا أنها تفضل البقاء قريبًا من المنزل، والقرية لا تبعد عنه أكثر من ثلاثة أو أربعة كيلومترات. فردت «هاربيت» مفكرة:

– قد لا نجد نزلاً هناك.

– لديّ شعور أكيد بأننا سنجد واحدًا.

– وإذا اتضح العكس، ماذا سنفعل؟ فهزت «سوزان» كتفيها وقالت:

– في هذه الحالة سننام في السيارة. وأذعنت خالتها لمشيئتها... عادت «هاربيت» تقود السيارة على الطريق المشقوقة بين قريتي «بلسوربو» و«روشلاك». وأحست بشعور بسيط من الألفة تجاه «روشلاك»، هو الذي جذبها إليها بالدرجة الأولى، إنما لم تستطع تحديد هذا الشعور. وأمكنهما من الطريق أن تريا البيت المحاط بالأشجار وحتى رؤية سطحه القرميدي الرمادي وخلفه الجدول المتدفق. كان كل شيء يبدو ساحرًا من بعيد. لكن إرهاق «هاربيت» الشديد حال دون تقديرها لهذه الحسنات. أما «سوزان» فتطلعت إليه بحنين عبر كتفها لكن خالتها ضغطت بقوة على دواسة الوقود فانطلقت سيارة الفيات الصغيرة تركض بهما قدمًا.

بدت «روشلاك» ملتصقة بجانب التل المطل على النهر والذي يتفرع منه الجدول المجاور للبيت المهجور. وخمنت «هاربيت» أن السير إلى القرية بمحاذاة النهر قد يكون أسرع من الوصول إليها بالسيارة، لكنها سرعان ما انصرفت عن هذه الفكرة المشجعة على البقاء إذ أقنعت نفسها بأنهما قد لا تعيشان فيه ولا حاجة إذن إلى هذه الحسابات. كانت القرية ذات جمال طبيعي رائع كما تمنتها أن تكون، طرقات ضيقة، شرفات تعج بالمتسلقات المزهرة، ساحة صغيرة وبرج عال. أوقفت السيارة أمام حانوت لبيع الحلوى

WWW.REWITY.COM مـرمـوريـة

تنبعث منه رائحة خبز طازج تسيل اللعاب، ثم أقفلت السيارة وسارت مع «سوزان» على الدرب الشديد الانحدار المرصوف بالحصى والمؤدي إلى النهر. البيوت على جانبي الطريق عالية ومتلاصقة كما لو أنها تتزاحم على إيجاد فسحة فيما بينها. وأسطحها المنحدرة الرفيعة الرؤوس تبدو كالرماح على كتف الجبل الصخري، وذات نوافذ بارزة إلى الخارج وبعضها مغطى بستائر ملونة من الكتان السميك لتحميها من تأثير الشمس المشعة على النهر الجاري بسلاسة وغموض. وقفت «سوزان» على حافة الطريق ونظرت من فوق إلى أعماق النهر. انضمت إليها «هاربيت» وقد جذبها على التو مشهد مركب سياحي يتهادى عليه، وكان الركاب يغمسون أيديهم في مياهه الباردة. ثم تنهدت بحسرة وقالت:

– هيا بنا، يجب أن نبحث عن مكان نمكث فيه. وهتفت «سوزان» فجأة:

– أوه، انظري! كانت تشير إلى ما وراء القرية، إلى أبراج قلعة أو قصر تطل من فوق الأشجار التي تغطي واجهته. لقد شاهدتا نماذج عديدة من هذا الفن المعماري في طريقهن إلى «روشلاك». وتوقفتا في «بيناك»، لمشاهدة القصر الذي كان في يوم من الأيام معقل «ميركاديه» الرهيب. ففي أثناء حكم «ريتشارد قلب الأسد»، استبيحت ونهبت الضاحية حول «بيناك» حتى جاء «سيمون دو مونفورت» بنفسه وفرض هيبة الأمن في عام 1214. هذه الناحية من «فرنسا» كانت تعمها حكايات من هذا النوع، وتاريخها الجياش لم يكن إلا جزءًا بسيطًا من جاذبيتها. سألتها «سوزان» بفضول:

– هل تظنين أن أحدًا يسكن هنا؟ لكن «هاربيت» هزت رأسها، فعلقت الصغيرة:

– إني أشاطرك تخمينك، لنتمشى إلى الساحة مرّة ثانية، فلا توجد هنا فنادق أو نزل. وظهر أن هذه القرية لا يوجد فيها استعدادات لاستقبال السياح، وصاحب المقهى الوحيد أوضح أنهم لا يستقبلون زوارًا كثيرين. ولحسن الحظ

كانت «هاربيت» طلقة اللسان باللغة الفرنسية، لأن عملها كان قد استلزم مجيئها أكثر من مرّة إلى «فرنسا»، ولذا علمت أن صاحب المقهى يعرف عددًا قليلاً من الكلمات باللغة الإنجليزية. وسألت «هاربيت» وهي تحاول إخفاء نفاد صبرها:

– وماذا الآن؟ لا أجد فكرة العودة إلى «بيناك» مستحبة. فقطبت «سوزان» حاجبيها وخاطبت صاحب المقهى قائلة:

– هل تعرف أحدًا يمكنه استضافتنا هذه الليلة؟ عبس الرجل وغاص في خطاب طويل لم تفهم «سوزان» منه إلا القليل ما عدا كلمة قصر. وأدارت عينيها المرتبكتين نحو «هاربيت» التي حزنت عليها وأوضحت كلام الرجل بقولها:

– «ماكون» أي صاحب المقهى كان يؤمن متطلبات القصر، ويقول إنه ما عدا القصر لا توجد بيوت تستطيع استضافة الزوار.

– هل القصر فندق؟ سألت «سوزان» بحماسة لأنها وجدت فكرة قضاء الليلة في قصر من العصور الوسطى شائقة جدًا، لكن «هاربيت» خيبت أملها سريعًا وقالت:

– يبدو أن لا أحد يعيش في القصر هذه الأيام، إذ لم يستطع المالك تأمين تكاليف الصيانة فأخذ القصر يتداعى كغيره من القصور. انتظري قليلاً. قالت هذه الجملة بحرارة شديدة جعلت السيد «ماكون» و«سوزان» ينظران بدهشة إلى «هاربيت» التي قفزت من مكانها، وراحت تقول:

– سيد «ماكون»، هل القصر جزء من الممتلكات؟ هل الذي يملك الأراضي يملك المزارع المحيطة بها؟ تعجب الرجل كأنه صدم من السؤال الذي لم يعجبه لكونها تخطت حدود التطفل، فرفع جسمه المسترخي عن المقعد وقال بصوت متشنج:

– ذلك ممكن أيتها الآنسة، والآن اسمحا لي بالانصراف. فقلصت «هاربيت»

قبضتيها وسألته بتوسل:

– لحظة من فضلك، هناك شيء آخر، من يملك القصر؟ مسّ صاحب المقهى صدريته، وسأل بتهرب:

– لماذا تريدين أن تعرفي؟ التفتت «هارييت» إلى «سوزان» ثم قالت للرجل بتردد:

– إننا في الواقع، أقصد أني... اشتريت عقارًا يبعد بضعة كيلومترات من هنا، وأتساءل من يملك هذا القصر. اشتريت العقار بواسطة وكيل في «باريس».

نظر إليها مرتابًا وقال:

– ولكنك سألت عن مكان تمضيان فيه الليل؟ تمكنت «هارييت» من كبت الغيظ الذي كان ينبعث من كل جزء فيها وقالت:

– المنزل يحتاج إلى تهوية وتنظيف. لكنها أيقنت أن السيد «ماكون» لم يكن مقتنعًا بما تقول. التفت الرجل حوله بريبة كأنه يأمل أن يجد زبونًا آخر ليمنحه كل اهتمامه. لكن المقهى الصغير كان مقفرًا في هذا الوقت من النهار. وحزرت «هارييت» أنه كان يتمنى لو أقفل باكرًا ليتجنب الرد على مثل هذا السؤال. وحثته «هارييت» سائلة:

– على الأقل، ما اسم هذا القصر؟ استنتجت أنه مهما كان اسم القصر فلابد من أن صاحبه يحمل الاسم نفسه.

– إنه قصر «روش فورت» أيتها الآنسة. أي شخص يستطيع أن يقول لك ذلك.

– شكرًا. لملمت «هارييت» حقيبتها وخريطتها التي كانت تحملها وغادرت المقهى بصحبة «سوزان» التي سألتها حالما أصبحتا بعيدتين عن مسمع الرجل:

– علام كان كل هذا الجدل؟ لماذا يهمك من يملك القصر؟ ابتسمت «هارييت» بداخلها وقالت لها:

– الأمر واضح وحسبتك حزرت الحقيقة. ظهرت العصبية على «سوزان»، فخاطبتها «هارييت» قائلة:

– ألا ترين؟ إن السيد «فروند» يمثل المالك، والبيت الذي ابتعناه ربما كان ملك الكونت «دو روش فورت»، إذا كان يدعى كذلك. انفرج وجه «سوزان» وهتفت:

– فهمت. تعنين أنه قد يتوجب علينا التكلم مع المالك. أليس كذلك؟

– شيء من هذا القبيل.

– لكن متى؟ الآن؟

– يا إلهي! كلا. ثم نظرت «هارييت» إلى ساعتها، وهزت رأسها قائلة:

– الساعة تقارب السادسة. لا جدوى من أن نحاول إيجاد طريقنا الليلة، وإلا تهنا. يجب أن نترك هذا العمل إلى الغد. وسألتها «سوزان»:

– وما العمل الآن؟ ابتسمت «هارييت» ابتسامة صفراء وهي تنظر إلى «سوزان» قائلة:

– إنني أمقت الفكرة، لكن يجب أن نعود أدراجنا.

– إلى البيت؟ بدت «سوزان» في غاية الفرح والشوق فأجابت «هارييت» بجفاف:

– نعم إلى المنزل، لكن أقترح أن نبتاع بعض الأشياء قبل أن نذهب، مثل مبيدات للجرذان ومساحيق للتنظيف. كانت السيارة محملة بالأغذية الكافية لأسبوع واحد. لكن «هارييت» أضافت علبة من الحليب (اللبن) وكمية من البيض وذلك من باب الاحتياط. وقالت لـ «سوزان» عندما لاحظت الابتسامة العنيدة على محياها:

– آمل ألا تظني أنها ستكون نزهة. فقهقهت «سوزان» ضاحكة لتعليق خالتها وردت:

– لا أحسبك آسفة كليًا للعودة إلى البيت كما تحاولين أن تظهري. لم تستطع

www.rewity.com

«سوزان» إخفاء نشوتها عندما انطلقت بهما سيارة الفيات الصغيرة على الطريق المتعرج بين الأشجار، بينما الشمس تغيب وتضفي بريقًا على قرميد البيوت وهي تسدل وشاحًا من الظل على الجدران المشققة كأنها خليلة في الغروب تخفي شوائبها. وعندما أوقفت «هارييت» سيارتها أمام البيت ورأت دخانًا يتصاعد من المدخنة ارتجف قلبها بقوة إذ جالت في خاطرها قصص الأشباح والأساطير التي سمعتها. وصرخت «سوزان»:

– هناك دخان يتصاعد من المدخنة! «هارييت»، نحن لم نضرم النار في الموقد. نظرة واحدة إلى وجه الفتاة كانت كافية لتعيد الرشد إلى «هارييت» التي رددت:

– كلا، لم نضرم النار في الموقد. فتحت باب السيارة وترجلت برباطة جأش أذهلتها.مع العلم أن ساقيها كانتا ترتجفان وهي تقطع الممر القصير المعشوشب الذي يقود إلى المدخل. وانقبض قلبها في صدرها عندما ظهر شخص طويل القامة أمامها لم تستطع تمييز ملامح وجهه لأن شعاع الشمس كان يبهر نظرها. توقفت بتردد، متسائلة إن كان هذا الرجل متشردًا أو متطفلاً. تساءلت إن كان شرسًا وعندئذ تكلم فأحست العالم المحيط بها يتبخر. وهتف الرجل غير مصدق ما يرى:

– «هارييت»! يا إلهي، أحقًا أنت «هارييت» بنفسها؟

– 2 –

تجمّدت «هارييت» في مكانها. أحست أن «سوزان» قد لحقت بها وأصبحت وراءها وأحسّتها تلمس ذراعها وهي تسألها هامسة:

– من هذا يا «هارييت»، هل تعرفينه؟ لكن «هارييت» لم تجب، كانت مصعوقة، مرتبكة، فاقدة تمامًا إمكانية استعمال أوتارها الصوتية لتسمح

لكلمة ما بأن تخرج وتعبّر للرجل عما يجيش في نفسها. هل تعرفه؟ وفكرت منذهلة، هل عرفته؟ ليتها لم تعرفه. ليتها لم تلتق به أبدًا... لكن كل هذا لم يفسّر ماذا كان يفعل هنا. أراحها الضغط على حقيبتها، ولما زال وهج النور الذي يغشي بصرها، تمكنت من رؤيته جليًا... لو لم يتعرف إليها بسرعة هل كان بمقدورها التعرف إليه؟ طردت هذه الفكرة من رأسها لأنها غير جديرة بذكائها. طبعًا كانت ستعرفه. لم يتغير كثيرًا، ربما أصبح نحيلاً. لذلك بدت الخطوط عميقة في وجهه، وفي شعره خصل بيضاء لم تعهد كثرتها من قبل. لقد مضت ثماني سنوات على فراقهما وأصبح الآن في الأربعين أو أكثر. وها هو السواد يغلب على لون شعره الذي انسدل على ياقة قميصه ذي القماش الخشن. كان ينظف الموقد على ما يظهر، لأن ذراعيه بدتا مسودتين بغبار الفحم لذلك لم يحاول لمسها، لكنه نظر إليها بعينيه السوداوين اللتين ما نسيتهما أبدًا. قال

– «هارييت»، لم أعرف أنك أنت.

– ماذا كنت من قبل؟ خرجت الكلمات متقطعة حادة، لا تشبه أبدًا صوتها المبحوح. نظر إليها بغرابة وأوضح قائلاً:

– لم أدرك أنك أنت التي اشتريت البيت، ماذا تظنين أنني قصدت؟ آثرت «هارييت» ألا تجيب، والتفت إلى «سوزان» بقلق وقدمتها بصوت خافت:

– إنه السيد «لاروش» يا «سوزان». لقد التقينا منذ سنوات في «باريس» في مزاد علني. ما قالته كان إخفاء للحقيقة، وخشيت أن يفضح الأمر، لكنها خمنت أنه لن يفعل ذلك. قال للفتاة وهو يحني رأسه بأدب:

– كيف حالك يا «سوزان»؟ المعذرة، لم أستطع مصافحتك. ومد لها يديه المتسختين. ابتسمت «سوزان» قليلا، ونظرت إلى «هارييت» كأنها تطلب الإرشاد، فتنحنحت خالتها وقالت:

– حتى الآن لم توضح سبب وجودك هنا ياسيدي. نطقت هذه العبارة بقسوة،

www.rewity.com

مع أنها كانت متضايقة من قوة نظرته إليها. أجابها:

– حسبتك تعلمين. يجب إذن أن أقدّم اعتذاري عن حالة البيت المزرية، لكن حتى يوم أمس لم أعرف أن السيد «فروند» قد وجد شاريًا للبيت. نظرت إليه «هاربيت» بهلع وهتفت:

– هل تقصد أنك المستأجر القديم؟

– هذا صحيح. كان من الصعب عليها تصديق ذلك لكن كل شيء لا يصدّق. حتى «لاروش» نفسه يبدو مختلفًا جدًّا عن الرجل الأنيق المتحضر الذي التقته في صالات «سان جرمان» في «باريس». كان يرتدي آنذاك ثيابًا أنيقة ونظيفة، مفصلة بعناية لتظهر نحول جسمه. إنما الآن يجب أن تأخذ بعين الاعتبار أنه كان ينظف الموقد. لكن القميص الذي يرتديه مصنوع من قماش خشن، أما بنطلون الجينز الملتصق بعضلاته القوية فيبدو رثًّا وعتيقًا. سألته بصوت خافت، وهي تحس اشمئزازًا وامتعاضًا تجاه المكان:

– هل تسكن هنا؟ فهز رأسه وقال مفسرًا:

– كلا، لم أقل ذلك. أنا أسكن... على بعد بضعة كيلومترات من هذا المكان. وعندما علمت من السيد «فروند» أنه باع البيت، تيقنت أنه يجهل حالة المنزل. تنهدت «هاربيت» وقالت:

– فهمت. صوت فرقعة من الداخل جعل الرجل يستدير، واستأذن منهما ودخل ليهتم بالحطب الذي كان يحترق متأججًا في الموقد. تبادلت «هاربيت» مع «سوزان» نظرات المغلوب على أمره، ثم تبعتاه إلى الداخل. بدت الغرفة أصغر حجمًا بوجوده بجانب المدفأة، إنما لاحظت أن النفايات قد نظفت، وأن شبه محاولة قد تمّت لتنظيف الطاولة والكراسي. سألته وهي لا تصدق ما ترى:

– هل أنت الذي فعل ذلك؟ فأومأ بالإيجاب وقال وهو يكدس مزيدًا من الحطب:

– كنت الطابق الأعلى مساء أمس لكنني لم أجد متسعًا من الوقت لإكمال كل شيء. إن كل شيء بدائي هنا كما ترين. تريث قليلاً، وعندما لم تبد ملاحظة وقف واستدار إليهما قائلاً:

– بإمكانكما تفقد المكان. وإذا تبيّن لكما أن البيت ليس كما وصفه السيد «فروند»، فلا أستطيع أن ألومه، لكنني سأطلب منه أن يعيد إليكما الثمن حالاً. تطلعت «سوزان» بقلق نحو خالتها. كانت لغة «لاروش» الإنجليزية أحسن بكثير من لغة «هاربيت» الفرنسية. ولم يكن هناك مجال للالتباس. واعترفت «هاربيت» بتردّد:

– في الواقع أتينا إلى هنا باكرًا وتفقّدنا المكان حينئذ.

– آه. لم يبدُ عليه الاستغراب وأردف:

– أذكر أنني لم أقفل الباب. فشهقت «هاربيت» وسألته مندهشة:

– وهل لديك مفتاح؟ أخذت عضلات وجهه تتقلص وأجاب:

– بالتأكيد. قلت لك إنني لم أعلم أن السيد «فروند» قد باع البيت.

– حسنًا، إذا كنا سنبقى هنا فأنتظر منك أن تعطيني المفتاح. تحرك فمه كأنه يهزأ بها وقال:

– بالطبع. أحست «هاربيت» باحمرار وجهها وانتبهت إلى فتحة قميصها وشكلها المشعث، فحتى تلك اللحظة كانت مشدودة إلى مظهره فلم تبال بمظهرها. ارتفعت أصابعها بطريقة آلية لتقفل زرّ قميصها. وكأن الرجل أحس بحرجها فأدار وجهه لتفقد النار. كانت خيالات الغسق تعتم الممر في الخارج فبدت النار فرحة ومشعّة، وانعكاس الشمس الغائبة أضفى على الغرفة سحرًا غريبًا. ظنّت «هاربيت» أنه بعد تنظيف البيت وطلاء الجدران سيتحسن منظره لكن البيت لم يعد المشكلة بل الرجل الذي يقف قرب المدفأة أصبح هو العقبة. شدت «سوزان» كمّ قميص خالتها وسألتها بلوعة:

– سنبقى هنا، أليس كذلك؟ فبدرت عن «هاربيت» حركة توحي بنفاد صبرها

www.rewity.com

وقالت:

– أرجوك، لا تضايقيني. كانت «سوزان» مصممة على البقاء لكن «هاربيت» رفضت الابتزاز. صحيح أنها هي التي اقترحت أن تصطحب ابنة أختها ليضعة أشهر لتشفيها من صدمة موت والديها، لكن إذا كان السيد «فروند» مستعدًا لإعادة المبلغ إليها، فلا يوجد سبب يمنعها من شراء بيت أو كوخ في مكان آخر من البلاد. إلا أنها تحب منذ زمن هذه المنطقة، وتريد البقاء فيها. لكن كل هذا كان قبل أن تعرف من سيكون جارها. كيف تستطيع أن تمكث هنا، على رمية حجر منه ومن عائلته؟ كيف تستطيع أن تتحمل فكرة لقائه في أي وقت... أو التقائها بزوجته؟ ربما وجودها هنا سيعتبره دعوة مفتوحة ليجدد العلاقة التي كانت بينهما. وهي لن تدعه يفعل ذلك أبدًا! إن وجوده هنا أذهلها، وتساءلت منذ متى أصبح يقوم بأعمال يدوية؟ وقال فجأة:

– أخيرًا تبدو النار متقدة كما يجب. تقدم من المغسلة ليغسل يديه المتسختين ثم سأل:

– هل تنويان قضاء الليل هنا؟ لفّت «هاربيت» حمّالة حقيبتها حول معصمها، وردّت باختصار:

– أجل. لقد ذهبنا إلى القرية بحثًا عن نزل، لكن صاحب المقهى المدعو «ماكون» قال لنا إنه لا توجد فنادق في هذه الناحية.

– هذا صحيح، مع العلم أن شركة أمريكية رغبت مؤخرًا في شراء القصر وتحويله إلى فندق من الدرجة الأولى.

– قصر «روش فورت»؟ فقطب حاجبيه وسألها:

– هل ذهبت إلى هناك؟ قالت وهي تهزّ رأسها:

– كلا، مجرد فكرة... لا يهم. نظرت «هاربيت» إلى «سوزان» ثم أضافت:

– ربما نعلمك غدًا إذا كنا سنبقى... الوقت أصبح متأخرًا، ونحسّ بالجوع. نشف يديه بمنديل سحبه من جيب بنطلونه. لم يكن المنديل جديدًا لكنه

نظيف للغاية. ووجدت نفسها تتساءل عن حقيقة مكانته. إن حالته تحير، حتى لو كان يستحق العقاب. قال وهو يضع المنديل في جيبه:

– كيف ستنامان؟ إن السرير الموجود فوق لا يصلح.

– لا أعتقد أن هذا الأمر يهمك، يا سيد «لاروش». قالت ذلك ببرود جعل وجهه يحمر قليلاً. وأجاب بهدوء:

– لم أقصد التطفّل. أحسّت «هاربيت» باللوم وقبل أن تكمل أضاف:

– إذا قررتما البقاء، سآتي لكما بسريرين عوضًا عن الذي فوق والذي يجب أن يتلف. لم تشكره «هاربيت»، فالبيت بيع مؤثثًا ولا جدال حول ضرورة وجود سرير فيه. وسألت «سوزان» فجأة:

– أين الفرن؟ أجاب «لاروش»:

– لسنين خلت كان الفرن الوحيد المجاور للموقد، لكننا زودنا المستأجرين القدامى بفرن يعمل بالغاز. مع الأسف نقلته منذ أشهر إلى القصر وسوف أرسله إليكما إذا آثرتما البقاء. تنهدت «هاربيت» وقالت:

– وكيف نستطيع تحضير شراب ساخن؟ فدلّها على إبريق حديدي قرب الموقد وقال معتذرًا:

– آسف، عليك أن تغلي الماء في هذا الوعاء الليلة. توقف قليلاً وكأن عينيه تبحثان عن شيء في وجه «هاربيت». ثم أضاف:

– ما لم تودي أن تنضمي إلى العائلة لتناول العشاء. فأشاحت عنه بانفعال واشمئزاز. كيف يجرؤ؟ كيف يستطيع أن يدعوها إلى تناول العشاء والجلوس إلى الطاولة نفسها مع زوجته وعائلته مع علمه بعلاقتهما... السابقة؟ كادت تختنق وهي ترفض دعوته. فحرك منكبيه ودلّت هذه الحركة على أصله الغالي قال:

– كما تشائين. وتقدم نحو الباب متابعًا:

– سأعود في الصباح لأعرف قراركما. ثم أشار إلى القنديل المتدلي من السقف

www.rewity.com

وقال:

– يوجد زيت في داخله، هل تستطيعين إضاءته؟ انتصبت «هاربيت» وقالت:

– أظن ذلك يا سيدي، تصبح على خير. أجاب بتهذيب:

– وأنت من أهل الخير. حيا «سوزان» بابتسامة صغيرة ثم تركهما وذهب عبر الممر. انتظرت «هاربيت» حتى وصل الدرب، فأسرعت إلى النافذة، وهي تسكت «سوزان» التي حاولت الكلام، وأخذت تراقب الطريق الذي سيسلكه. انعطف إلى الطريق الممتد بين «بلسوربو» و «روشلاك»، ودخل بين مجموعة الأشجار التي تحدّ الجدول. أكد بذلك نظرية «هاربيت» بأن هذا الممر يقود إلى القرية. انتظرت حتى غاب عن النظر ثم اتكأت على الحائط ويدها تضغط على شريان عنقها المنتفض. نظرت إليها «سوزان» لثوان ثم سألت بصبر نافد:

– من هو؟ ماذا يجري هنا؟ انتصبت «هاربيت» وهي تهز رأسها:

– قلت لك... هو... أنا... لقد التقينا منذ بضع سنوات في «باريس».

– هل هو تاجر تحف قديمة أيضًا؟

– لا أعرف.

– لكنك قلت إنك التقيته في مزاد علني.

– أجل. ثم أشاحت «هاربيت» بيدها في الهواء وأردفت بحزم:

– اسمعي، لا وقت لدينا للحديث في هذا الموضوع. ستظلم قريبًا وعلينا أن نفرغ السيارة. نظرت إليها «سوزان» بحرد وقالت:

– لا تستطيعين التخلص بهذه السهولة، أنت لم تلتقيه مرّة واحدة فقط. أنا لست بطفلة، ويبدو لي أن معرفتكما قامت على عدة لقاءات.

– أوه، كفى يا «سوزان»... وخرجت «هاربيت» من البيت. فألحت «سوزان» وهي تلحق بخالتها:

– حسنًا ما الخطأ الذي حدث بعد ذلك؟ أقصد أنه جذاب وقد ذكرني بـ«ساشا دي ستيل». قالت «هاربيت» غاضبة:

– يا إلهي، لا يشبه «ساشا دي ستيل» أبدًا! هل ستساعدينني في نقل الحاجات إلى الداخل أم لا؟ حملت «سوزان» صندوق المأكولات واستفسرت بغوية:

– هل كانت لك علاقة غرامية به؟ وللحظة لم تستطع «هاربيت» الكلام لأن السؤال صعقها فأكملت «سوزان» حديثها وهي تحمل المأكولات إلى المطبخ:

– إنه شيء طبيعي. إنني أعرف فتيات في عمري و... قاطعتها «هاربيت» قائلة:

– أفضل ألا أتحدث في هذا الموضوع. وضعت «هاربيت» أكياس النوم على الطاولة وتابعت قائلة:

– هل تفضلين الشاي أم القهوة؟ أنا لا فرق عندي بين الاثنين. فهتفت «سوزان» وهي تنظر إليها بتوسل:

– أخبريني باسمه على الأقل. تنهدت «هاربيت» وردت بسؤال:

– لماذا؟

– أريد أن أعرف فقط، وسوف أتوقف عن الأسئلة إذا أجبت بصراحة.

– أحقًا ستتوقفين؟

– نعم، نعم أعدك بذلك. انحنت «هاربيت» فوق الأغراض وقالت:

– اسمه «أندريه». «أندريه لاروش». والآن، هل يمكن أن نقوم ببعض الأعمال؟ كان الماء يغلي في الإبريق المنظف، واللحوم الباردة والجبنة والخبز المحمص الطازج أشهى ما يمكن مع القهوة الساخنة. كان الباب موصدًا على سواد الليل، وضوء القنديل يبعث الدفء. قالت «هاربيت»:

– لم نجرب محاسن الاغتسال بالماء البارد، وتذكري أنه لا يوجد حمّام. هل لاحظت الحمّام وأنت تمرين بالجدول؟ أومأت إليها «سوزان» قائلة:

www.rewity.com مـرمـور

– إنه وراء الباب الخلفي مباشرة. فقالت «هاريت»:

– سوف نستعمل الكيماويات... ثم زمت شفتيها قرفًا وتابعت:

– لا أستطيع أن ألوم أحدًا على ذلك. كنت أعرف أن التسهيلات غير مشابهة لما اعتدناه لكن... قاطعتها «سوزان» قائلة:

– سنبقى هنا أليس كذلك؟ إنه ليس سيئًا كما توقعناه. وإذا أمن لنا «أندريه لاروش» سريرين...

– السيد «لاروش» من فضلك. قاطعتها «هاريت» بحدة وتابعت قائلة:

– لا أعرف ماذا سأفعل. إذا أعاد إليّ السيد «لاروش» المبلغ، من المستحسن أن أستعيد نقودي. فشهقت «سوزان» وقالت بانفعال:

– أوه، كلا! بسطت «هاريت» يديها كأنها لا تستطيع فعل شيء وقالت:

– يمكنني شراء بيت آخر، وفي مكان أقل وحشة من هذا.

– لكنني أحب هذا المكان. هتفت «سوزان» وهي ترفع شعرها عن جبينها وبدت في هذه اللحظة تشبه والدتها كثيرًا. «صوفي» والدة الفتاة كانت ذات شعر أحمر وعينين زرقاوين ورثتهما ابنتها «سوزان»، مع العلم أن شعر «سوزان» أكثر شقرة.ولم تكن لديها المشاكل الجلدية نفسها التي كانت والدتها تعانيها. أما «هاريت» فعيناها بنيتان وأقوى من عيني «سوزان» التي تشكو من قصر النظر. تأثرت «هاريت» لذكرى شقيقتها وترددت مع أن كل شيء في داخلها كان يحثها على ترك البيت ما دامت الظروف تسمح بذلك، وتفضل الابتعاد عن «روشلاك» قبل أن تزج في وضع تندم عليه. قالت مسايرة:

– «سوزان»... «سوزان». لكن ابنة أختها كانت لها قوة أبيها فواجهت خالتها بعناد وقالت:

– وعدت بأن نبقى هنا. كنت دائمًا تقولين إنك تودين الإقامة في وادي «دوردون» لتستكشفي القصور والكهوف. أما الآن فأنت تغيرين رأيك. وكل

ذلك من أجل هذا الرجل.

– هذا ليس صحيحًا. احمرت وجنتا «هاريت» وتابعت:

–تعلمين يا «سوزان» أن المكان لم يعجبني عندما رأيته.

– لكنك كنت ستبقين، وكنا سنحاول تحسين الوضع. ذلك حتى اللحظة التي التقيت فيها بـ«أندريه لاروش».

– «سوزان».

– لا أصدق أنك لا تحبين هذا البيت. باستطاعتنا تحويله إلى جنة، وأنت تعلمين ذلك. ماذا حدث؟ هل تركك أو حصل شيء من هذا القبيل؟ أذلك أنت عانس في السادسة والعشرين؟ حالما أنهت «سوزان» كلامها، ندمت على ما قالته فوضعت رأسها على ذراعيها المطويتين وأجهشت بالبكاء كأنها مكسورة القلب. تركتها «هاريت» تبكي لفترة وجيزة، لأنها أيقنت أن هناك أسبابًا أخرى غير خيبة الأمل التي جعلتها تذرف الدموع. لم تشف بعد من صدمة وفاة والديها بحادث سيارات جماعي منذ ستة أسابيع. وكانت «هاريت» مخطئة في تفكيرها إذ اعتقدت أنها تستطيع تحوير أفكار الطفلة حينما يطيب لها. وأيضًا ربما التقت بـ«أندريه» في أي وقت وفي عدّة أماكن تجرى فيها مزادات علنية في أنحاء «فرنسا». ربما كانت فكرة صائبة أن تخرج طيفه من حياتها لآخر مرة، على أن العلاقة التي كانت بينهما في تلك الحقبة من حياتها أثرت في كل علاقاتها اللاحقة. ولم تكن «سوزان» مخطئة عندما اتهمتها بأنها عانس. فالرجل الوحيد الذي دخل حياتها بعد «أندريه» هو «تشارلز» ولم يكن بينهما إلا حبهما المشترك للأثريات. نهضت من مكانها وتقدمت نحو الفتاة واحتضنتها. اعتذرت «سوزان» بصوت خافت وأسندت وجهها إليها وهي تشهق باحثة عن منديلها. كانت العاصفة قد هدأت فنظرت إلى خالتها بسذاجة وقالت:

– آسفة. قالت «هاريت» بمرح:

– لا تكوني سخيفة، لست غاضبة وربما أنت على حق فأنا عانس بالفعل.

– كلا، لست بعانس يا خالتي. كل ما في الأمر أنك تكرسين وقتك لعملك. صديقاتي يقلن إنك لبقة وثيابك دائمًا في غاية الأناقة. أنت لا تشبهين أمي، أقصد... لم تبدي اهتمامًا بالزواج ولا بإنشاء عائلة، أليس كذلك؟ ولكني أعتقد أنك عرفت عددًا كبيرًا من الرجال...

– إنك تظهرينني كامرأة قاسية أنانية! كانت «هاريت» تبتسم وهي تجيب، لتخفي الألم الذي أحدثه كلام الفتاة. لو علمت «سوزان» بالمرارة التي تشعر بها خالتها. قالت «سوزان»:

– أنا أيضًا أود أن أكون مثلك. لا أريد الزواج بأحد حتى أصبح في الثلاثين من عمري. أريد أن تكون لديَّ مهنة. استدارت «هاريت» لتأخذ الأكواب الفارغة وتضعها على المجلى. في الخارج أصبح السواد دامسًا، والحشرات التي يجذبها النور كانت تصطدم بزجاج النافذة الملطخ. من فترة وجيزة كانت «هاريت» قد وضعت مكان الزجاج المكسور نوعًا من الكرتون على النوافذ. والآن عندما رأت الحشرات والبعوض تحاول أن تعبر إلى داخل المنزل فرحت لما فعلت، فهي لا تحب الحشرات على أنواعها. سألتها «سوزان» وقد قررت أن تترك للغد استيضاح «هاريت» حول بقائهما أو عدمه:

– أين سننام؟

– هنا على ما أظن فالهواء في غرفة الجلوس يبدو رطبًا، وأفضل أن تكون الحجرة نظيفة قبل أن نستعملها.

– حسنًا. استعادت «سوزان» رباطة جأشها السابقة وأخذت تفرش أكياس النوم قرب النار. واستأذنت خالتها قائلة:

– هل بإمكاني تأجيل الحمّام إلى صباح غد؟ إني أشعر بالنعاس الشديد.

– حسنًا. فقالت «سوزان» باسمة:

– لكنني سأذهب إلى الحمّام قبلك لأتأكد أنه خالٍ من الحشرات التي

تكرهين. عندما عادت «هاريت» إلى البيت سمعت نعيق بوم، فكتمت ضحكة هستيرية كانت على وشك أن تخرج من أعماقها. لماذا لم تتصور كيف يصبح المكان في الظلام؟ وأقفلت الباب وهي تشعر بشيء من الاطمئنان. ومع أنها كانت منهوكة القوى، إلا أنها لم تستطع النوم جيدًا لأن أمورًا كثيرة جالت بخاطرها، ولا سيما القرار الذي ستتخذه في اليوم التالي. أما «سوزان» فكانت تنعم بنوم هادئ عميق فحسدتها لأنها تستطيع ترك مشاكلها تحل نفسها بنفسها. فكرت «هاريت» في الوضع الذي تعانيه. ماذا ستفعل، علمًا بأن «سوزان» ستكون في غاية التعاسة إذا باعت البيت، وكم سيستغرق إيجاد مكان آخر حتى لو توفر لها المال؟ على كل حال، لقد منحها «تشارلز» عطلة شهرين فقط، كما كان على «سوزان» أن تعود إلى المدرسة في شهر أيلول (سبتمبر). لا حل لها إلا البقاء هنا حتى لو لم تحب هذا التدبير. إنها ثمانية أشهر فقط، ومتى استتب بهما المقام بطريقة مرضية، فلا حاجة لهما إلى أن تريا «أندريه لاروش»، فهما لا تدفعان إيجارًا لتضطرا إلى رؤيته، ولا شك في أن زوجته ستسارع إلى الاعتراض إذا بدأ يتردد عليهما بكثرة... هل هي غير واثقة بنفسها وبمشاعرها إلى حد الاستسلام لفكرة الهرب الجبانة؟ إن الماضي مات، والألم الذي تحسه ناتج من جرح قديم فتحته فجأة يد ثقيلة قاسية. فكل جرح يتعرض للهواء قد يتأخر شفاؤه، لكن ليس من شيء يقنعها بأنها ستتخلى يومًا عن إحساسها بالكره والاحتقار تجاه الرجل الذي أيقظها بقسوة على حقائق الحياة.

– 3 –

استيقظت «هاريت» على صوت الماء الذي كانت «سوزان» تعبّئه في الإبريق، وقد تمكنت من تحريك الجمر دون أن تحدث صوتًا يزعج خالتها، ثم

أضافت بعض الأغصان اليابسة وبعض قطع الكرتون من بقايا العلب التي كانت تحتوي على المأكولات، ونجحت في إيقاد النار لتغلي الماء المطلوب للإفطار. تحركت «هاربيت» في نومها، وأحست أنها مرتاحة على الرغم من تشنج ظهرها. في الخارج، كانت الطيور تغرّد ورائحة البراعم تفعم الجو بالعبير. كل شيء أصبح أكثر إشراقًا مما كان يبدو في الظلام، مع أن أشعة الشمس التي تسللت عبر النوافذ الملطخة كانت تضيء عيوب الغرفة. نامت «هاربيت» بثيابها، والآن عندما خرجت من كيس النوم، أحست بالحرارة والعرق وتذكرت ما قالته عنها «سوزان» في الليلة الماضية بأنها عانس. هذا التشبيه بدا أصح في تلك اللحظة لأن منظرها يوحي بذلك. سألتها «سوزان» وهي تضع الإبريق فوق النار:

– هل قضيت ليلة مريحة؟ فلم تبح لها «هاربيت» بأنها لم تغمض عينيها قبل ساعات الفجر الأولى. وسألتها بدورها:

– وأنت؟ ثم نهضت وأخذت تطوي كيس النوم فأومأت «سوزان» بحماسة وقالت:

– نمت كقطعة خشب، ربما بتأثير المناخ. ثم ملأت صدرها بالهواء النقي وتابعت قائلة:

– أليس الصباح الريفي ساحرًا؟ لفت «هاربيت» كيس النوم ووضعته على الطاولة وقالت متسائلة:

– أتظنين أن الجدول ضحل؟ فردت «سوزان» بشوق:

– جدولنا؟ لا أظنه عميقًا جدًّا إذا كان هذا ما تقصدين. فعبست «هاربيت» قائلة:

– هل بإمكاني أن اغتسل فيه؟ أحس أنني متسخة. وأحتاج إلى حمّام جيد قبل أن أبدّل ثيابي. أجابت «سوزان»:

– سأذهب لأستطلع إذا أردت.

– كلا، لا تتعبي نفسك، سأذهب أنا. هل أخرجنا المناشف من الحقيبة ليلة أمس؟ فتحت «هاربيت» الباب وخرجت إلى الحديقة وهي تحمل الفرشاة ومعجون الأسنان والصابون والمنشفة. كانت الحديقة الخلفية كالتي أمام البيت، تعجّ بالأعشاب والشجيرات العالية. وبينما «هاربيت» تشق طريقها، رأت حديقة حشائش تنبعث منها رائحة النعناع وإكليل الجبل. كان الغدير صافيًا سريع الجريان وخطر لها أن تذوق طعم الماء ثم عدلت عن الفكرة لأنها لا تريد أن تجازف. خلعت حذاءها وغطست قدميها في الماء المثلج وهي تبتسم لأن برودة الماء دغدغت أصابعها. في أسفل المجرى تجويف في الصخر تحوّل إلى بركة ماء صغيرة. وتمنت «هاربيت» لو تستطيع تغطيس جسمها الدبق فيها. لا بأس بالاغتسال، لكنه لا يشبه الاستحمام الكامل، وبعد التأكد من خلاء المكان نزعت قميصها وبنطلونها، وغطست في الجدول. جلست على القاع الرملي، فأخذ الماء ينساب من حولها وهي ترغي الصابون بلذة كالأطفال. في شقتها بـ «لندن» حمام كبير وعصري يحتوي على كل متطلبات الراحة، ولذا نسيت مع الوقت كيف تستمتع بمباهج الحياة البسيطة. حتى منزل والديها في «ساري» كان مزودًا بجميع أسباب الراحة من تدفئة مركزية وآلات غسيل. لكن الجلوس هنا جعلها تحس باللذة التي تفتقدها. وبحركات رشيقة جففت جسمها بالمنشفة لتعيد إليه بعض الدفء، ولبست بنطلونها وقميصها وركضت نحو البيت. لم تبال بتزرير ثيابها لأنها كانت تزمع تبديلها في البيت. ووصلته مشتاقة ومصممة على أن تخبر «سوزان» بما حدث. رأت «أندريه لاروش» متكئًا على المجلى، يحادث «سوزان» وهي تضع الزبدة على الخبز المحمص. اهتزت ولفّت نفسها بالمنشفة المبللة. تساءلت بانزعاج من أين أتى، وإن كان قد شاهدها وهي تستحم في الغدير. ربما خرير الماء منعها من سماع وقع خطاه. لم تحتمل فكرة رؤيته لها وهي تأخذ حمامها المرتجل.

www.rewity.com

– صباح الخير. انتصب يحييها بتهذيب، لكنها لحظت نظرته المتسائلة وضمّت المنشفة حولها. هل في نبرة صوته سخرية مبطنة أم هي تصورتها فقط؟ تجاهلت تحيته وقالت بجفاف:

– لقد بكرت في زيارتنا، فالساعة بالكاد تناهز الثامنة. أجابها بلطف:

– بعضنا لديه أعمال، لو وجدتك نائمة لكان عليّ أن أعود ثانية.

– هل تريد بعض القهوة يا سيد «لاروش»؟ سلب سؤال «سوزان» الفرصة من «هاربيت» لتجيبه، فدخلت الصالون الصغير حيث الحقائب. وفي لحظات ارتدت قميصًا نظيفًا وبنطلونًا من القطن المخطط وانتعلت حذاء ذا كعب عالٍ، وسرّت للطول الإضافي الذي منحها إياه. فمع أنها ممشوقة القامة، إلا أن «أندريه» يطولها بعدة سنتيمترات، وإذا استطاعت تقليل فارق الطول يكون أفضل. لما عادت إلى المطبخ وشعرها المنسدل يبرق من الفرشاة، أحست أنها تستطيع التعامل معه على الرغم من أنها لم تتبرج. كانت «سوزان» قد أحضرت القهوة وهي تقوم بسكبها وتقديمها إلى الضيف. انتظرت «هاربيت» بفارغ الصبر أن يطرح عليها السؤال الملح لديه، لكنه لم يفعل. لاحظ عودتها بحركة خفيفة من حاجبيه، ثم أثنى على «سوزان» درايتها بالأمور المنزلية. أشرق وجه «سوزان» نتيجة الثناء المقصود، لكن «هاربيت» صرّت على أسنانها بقوة وتعجبت لأن أسنانها لم تتكسر! قدّمت «سوزان» إلى خالتها فنجانًا من القهوة، ورفضت قطعة الخبز متجاهلة الرجاء الذي ظهر في عيني ابنة أختها. فرغم كل التعقل الذي حاولت إقناع نفسها به الليلة الماضية، كان شيء يحثّها على إبلاغه أنهما ستتركان البيت. وعلّق «لاروش» فجأة:

– أخبرتني ابنة أختك بأنك خبيرة بالسيراميك. فرمقت «سوزان» بنظرة منزعجة وأجابته:

– أنت تعلم أن الأولاد يبالغون. تجاهلت تذمر «سوزان» وتابعت قائلة:

– أتصور أنك ترغب في معرفة قراري من ناحية البيت. وضع «أندريه»

فنجانه على الطاولة، وكان اليوم يرتدي بنطلونًا من الجينز يتهدل على وركيه وقميصًا أخضر زيتيًا يضفي على ملامحه نوعًا من الشحوب. عندما استدار ليواجهها، أحست أنه ينوي تأجيل سؤاله عن القرار الذي توصلت إليه فشعرت بإرادتها تضعف... يا إلهي! قالت لنفسها، هل يريدني أن أبقى هنا؟

– أنت ذاهبة؟ لم تكن هذه العبارة بمثابة سؤال بل كأنه يقرر واقعًا. تحوّل انتباه «هاربيت» لبرهة عندما سمعت «سوزان» تشهق معترضة. ثم نظرت «هاربيت» إليه وأنكرت التهمة بقولها:

– لم يكن لديّ متسع من الوقت لكي أجد بيتًا آخر ولأدخل في مفاوضات البيع والشراء. لكن بالطبع أتوقع منك أن تؤمن السريرين اللذين وعدت بهما، والفرن. أجابها باللغة الفرنسية:

– بالطبع. كانت علامة قلة انتباه أن يجيب بلغته الخاصة، وأجبرت «هاربيت» على تجاهل الاستفسار الصريح الذي بدا في عينيه. كانت نصف غاضبة من نفسها لأنها قبلت البقاء وتميل إلى لومه على هذا الوضع. لم تستطع إقناع نفسها بأن لا علاقة له بهذه القصة. وبتصرف صبياني أرادت أن تجعل منه كبش فداء، ومن أجدر من «أندريه لاروش» أن يكون ذلك الكبش؟ سمعوا وقع أقدام في الخارج، ونظرت «هاربيت» بتعجب إلى ولد في الخامسة عشرة من العمر يقف على العتبة. كان شابًا وسيمًا طويل القامة ذا منكبين عريضين وشعر أسود وملامح رقيقة تدل على ذكاء. وقف رافعًا يديه ليسند نفسه إلى حاجب الباب، وارتعشت عيناه باهتمام عندما رأى الفتاتين ثم انفرجت أسارير وجهه بابتسامة لما وقع بصره على الرجل. وقال له الشاب بارتياح:

– أنت هنا؟ كنت أبحث عنك. علمت «هاربيت» على الفور من هو. فالشبه كان واضحًا، إذ ورث الشاب عيني أبيه. لم يكن مرتبكًا وهو يقف هناك

www.rewity.com

والفضول يعمق نظراته. قلص «أندريه» عضلات كتفيه قبل أن ينظر صوب الشاب. ثم قال له باللغة الإنجليزية:

– لا نملك هذا البيت بعد اليوم يا «بول». وكان باستطاعة «لويز» أن تقول لك أين أنا. «لويز». هل هذا اسم زوجته؟ توقفت «هارييت» عن التنفس. هل من المعقول أن ينادي زوجته باسمها أمام الشاب؟ وهتف الزائر مندهشًا:

– ماذا؟ قابل عيني «أندريه» بتحد ودارت بينهما معركة بصرية صامتة. ثم نظر إلى وجه «سوزان» الذي تورد فجأة ثم حوله إلى «هارييت» وقال:

– عذرًا أيتها الآنستان. بدا غير مقتنع بما يقول. وسمعت «هارييت» صوت تنفس «أندريه» الغاضب. وقال:

– هذا ابني «بول». لم يكن يحتاج إلى التعريف عن ابنه لأن الشبه بينهما واضح. لكن «هارييت» ردت قائلة:

– صباح الخير يا «بول». تأملها الشاب باهتمام وعلق بتمهل:

– أنت الآنسة «إنغرام» أليس كذلك؟ واندهشت «هارييت» للسهولة التي نقل بها حديثه من الفرنسية إلى الإنجليزية. ثم أضاف:

– قال لنا والدي إنك اشتريت هذا المكان دون أن تعاينيه. وخطا إلى الأمام متجاهلاً نظرات «أندريه» المتعضة وتابع يسألها:

– هل قررت البقاء في «روش فورت»؟

– «روش فورت». قطبت «هارييت» حاجبيها عند سماع اسم «روش فورت». واستوضحته قائلة:

– أتقصد «روشلاك»؟ نظر «بول» بسخرية إلى والده. وهز كتفيه قائلاً:

– ربما. على كل حال. هل ستبقين هنا؟ أجاب والده:

– هذا الأمر ليس من اختصاصك. فاعترض «بول» قائلاً ببراءة:

– ربما استطعت مساعدتكما. لكن «هارييت» لاحظت أن والده لم ينخدع بكلامه وشاطرته الرأي ثم استدارت قائلة:

– لا تجعلنا نؤخرك عن أعمالك.

– حسنًا. ونظر «أندريه» إلى ابنه بعصبية ثم قال لـ «هارييت»:

– سأرسل الأثاث المطلوب في وقت لاحق من النهار.

– شكرًا. تحركت شفتا «هارييت» بنوع من الابتسامة المهذبة المجردة من الدفء. وحول «بول» طرفه بين الآنستين لكن ذراع أبيه قادته نحو الباب وقال «أندريه» وهما يخرجان:

– إذا واجهتكما أية صعوبات أخرى فأرجو منكما الاتصال بي. لم تدرك «هارييت» إلا بعد مغادرتهما أنها لا تعرف أين يسكن «أندريه». وركضت «سوزان» واحتضنت خالتها قائلة بشوق:

– شكرًا. شكرًا. لكن «هارييت» لم تكن صافية المزاج لتقدر عفوية رد فعل «سوزان»، وأجابتها باختصار:

– لا تشكريني، علينا أن نعمل كالعبيد قبل أن نبدأ بالتمتع بهذه الإجازة. على الأقل. العمل الشاق سيبعد طيف «أندريه لاروش» عن مخيلتها. استعانت بإزميل ومطرقة لفتح نوافذ الطابق العلوي، مع العلم أن محاولة إقفالها ثانية ربما تصبح مستحيلة. طلبت من «سوزان» أن تنظف أرضية غرفة النوم ثم نقلت كل محتويات المطبخ إلى الخارج وبدأت بتنظيف الجدران والخزائن. كان عليها أن تؤجل تنظيف قاعة الجلوس، وفي أي حال لن تقضيا وقتًا طويلاً في تلك الغرفة. في الخارج وجدت كشكًا صغيرًا قرب بيت الخلاء يحتوي على بعض أدوات الزراعة البدائية. أخذت منجلاً ثقيلاً، ثم طوحته ببراعة في الهواء، فرأت بدهشة رؤوس زهرات دوار الشمس تقع أمام قدميها. كان المنجل حادًا أكثر مما تصورت، فنظرت إلى الحديقة المغمورة بالأعشاب البرية، وقالت لنفسها إن دور كل هذا يأتي لاحقًا. عادت إلى المطبخ حيث الجو حار والنار لا تزال متقدة، فلم تجرؤ على إطفائها قبل أن يرسل إليها «أندريه» الفرن. منذ الأمس لم تتناولا وجبة ساخنة، فقررت أن تحضّر بعض

www.rewity.com

البيض واللحم المقدد على النار إذا اضطرت إلى ذلك. لم ترغب في وضع المقلاة المطلية بمانع ضد الالتصاق على الموقد، لكنها مجبرة على ذلك لأن «سوزان» تحتاج إلى وجبة أفضل من الخبز والجبن. عندما ناهزت الساعة الحادية عشرة بدا منظر المطبخ مقبولاً. مع أنه يحتاج إلى طبقة من الطلاء. إلا أنه أصبح نظيفًا على الأقل. في هذه الأثناء كانت «سوزان» قد نظفت غرفة النوم، فتعاونتا على سحب الفراش إلى الحديقة، ثم فككتا السرير وأخرجتا قطعه أيضًا. صوت سيارة في الخارج جذبهما إلى النافذة. وعندما رأت «هاربيت» الشاحنة الصغيرة محملة بالأثاث أحست بارتياح. كان البيت قد اكتسب رونقًا، والشيء الوحيد الذي يزعج «هاربيت» هو وجود «أندريه» بالجوار. عرّف سائق الشاحنة بنفسه فقال إن اسمه «برتراند مادوك». كان قصير القامة ثقيل البنية رمادي الشعر وله عينان صغيرتان بنيتان تشبهان الأزرار. عندما رأته «هاربيت» خيل إليها أنه لن يستطيع حمل السرير إلى الطابق العلوي. لكنها سرعان ما غيرت رأيها لأنه بدا شديد العزم، وبسهولة متناهية استطاع أن ينقل السرير والمغسلة. وهتفت «سوزان» متأففة:

– لقد انتهيت لتوي من تنظيف الغرفة. لكن «برتراند» اكتفى بهز رأسه وقال يطمئنها:

– لحظة يا آنسة. فامتثلت «سوزان»، ووقفت تنظر إليه. لم يرسل «أندريه» سريرين وفرنًا فقط، إذ حوت الأغراض خزانة صغيرة قديمة قيمة ومزخرفة ببراعة، ومقعدين من القطيفة الحمراء، وأريكة باهتة اللون، ومكتبًا من القرن التاسع عشر. طلبت «هاربيت» من «برتراند» أن يضع الخزانة الصغيرة في المطبخ لأنها تصلح للأطباق والأواني... ليتها نظفت قاعة الجلوس قبل أن تصل الأغراض. ضايق «هاربيت» أن تشعر بالامتنان نحو «أندريه»، إنما دون شك كان لطفًا منه إرسال هذا الأثاث. هل استخدم هذه الطريقة ليجعلها مدينة له؟ لكن لماذا تفكر هكذا وقد دفعت مبلغًا مناسبًا ومن حقها أن تحصل

على تلك الأشياء؟ وتساءلت من أين أتى بكل هذا. لو أنه اشترى أثاثًا عصريًا جديدًا لكلفه أقل، ما لم يكن قد حصل على هذه القطع من أحد القصور المتداعية... ليست هذه المرة الأولى التي تساءلت فيها عما كان يفعل في قاعة المزاد في «سان جرمان» حين رأته قبل ثماني سنوات، وفجأة أدركت لماذا بدا اسم «روشلاك» في حينه مألوفًا. فبعض الأغراض التي عرضت للبيع آنذاك كانت من قصر «روشلاك». طبعًا! لماذا لم تتذكر هذا من قبل! إذن من هو «أندريه»؟ وكيل عند العائلات الأرستقراطية التي لحقها الفقر مع الزمن؟ أنهى «برتراند» عمله في غضون ساعة تقريبًا، ورفض أن يتناول الشراب. ثم صعد إلى سيارته فاضطرت «هاربيت» إلى اللحاق به ركضًا قبل أن يقفل باب السيارة وقالت:

– أرجوك أن تشكر السيد «لاروش» بالنيابة عني. فرد مبتسمًا:

– لا شك في أنك تستطيعين شكره بنفسك. ثم رجع بالسيارة إلى الخلف ومضى. عادت «هاربيت» إلى البيت وهي تفكر في كلماته. لقد بدا واثقًا بما يقول. هل الكل يعرف أن «أندريه» يتردد على البيت؟ ألم يعترض أحد؟ قررت بحزم أنها لا ترغب في أن تتكرر هذه الزيارات، وواجهت بهجة «سوزان» بوجه مكفهر. لم تستطع إظهار عدم اللامبالاة لوقت طويل. فالفرن الذي أرسله إليها كان جديدًا ويعمل بالغاز ومزودًا بموقد. الخزانة أصبحت أجمل الآن وهي مزينة بصحون على رفوفها. وحتى الشمس استطاعت الآن إرسال أشعتها من خلال النوافذ النظيفة. حملت «هاربيت» حقائبهما إلى الطابق العلوي، وانصرفت إلى ترتيب السريرين، ثم فردت عليهما غطاءين جميلين فبدت الغرفة أكثر إشراقًا. انتهت «سوزان» بسرعة من ترتيب الثياب، الفساتين والتنانير والبنطلونات معلقة بترتيب في الخزانة، والملابس الداخلية وضعت في الأدراج. التفتت «سوزان» إلى خالتها وهتفت بسرور:

– ألا يبدو كل شيء جميلاً؟ ألست سعيدة ببقائك هنا؟ فأحاطتها «هاربيت»

www.rewity.com

بذراعها واعترفت قائلة:

- كنت على حق بأن هذا المكان قابل للتحسين. بعد تناول وجبة الغداء، كان الجو حارًا للقيام بأي عمل. ارتدت «سوزان» لباس السباحة ونزلت إلى الغدير، ثم استلقت على حصيرة غير مبالية بالنمل. حملت «هاريت» كرسيًا هزازًا إلى الخارج، وأخذت تكتب أسماء الأغراض التي اعتقدت أنهما تحتاجان إليها. لكنها أحست أن هذا العمل البسيط مرهق، فوقع القلم من يدها واسترخت على المقعد. كان الهواء ساكنًا لا يداعب أوراق الأشجار، ولم يعكر الهدوء سوى تغريد العصافير وأصوات الحشرات وخرير الجدول الناعم. تحولت أفكارها نحو «أندريه لاروش» لعدم انشغالها بشيء، وإلى المصادفة الطريفة التي جعلته هو مالك البيت الذي اشترته. ربما لحسن الحظ لم تستقص عنه معلومات أكثر لأنها لو عرفت المزيد لما حضرت إلى هنا. وعلى الرغم منها عادت بها الذكريات إلى المرة الأولى حيث التقت هذا الرجل الذي لعب دورًا مخربًا في حياتها... منذ ثماني سنوات كانت في الثامنة عشرة من عمرها وفي أول رحلة لها بصحبة «تشارلز هوكني» إلى «باريس». كانت يومذاك في غاية السرور عندما أتيح لها لمس المعروضات التي قرأت عنها فقط، وزياراتهما المتعددة لقاعات العرض فاجأتها بثروة من الجمال والحرفية المتقنة. ربما في تلك اللحظات أصبحت تهوى البورسلين... عندما حملت في يدها تمثالاً رائعًا وتعلمت أن تميز ماركة الدوق «دو فيلوروا» مؤسس المصنع. أم أنها مع مرور الزمن، تتذكر كل تلك التفاصيل وتعطيها وزنًا أكثر مما تستحق؟ مهما كانت الحقيقة، تذكر حتى الآن كيف وقفت بجانب «تشارلز» في مؤخرة قاعة المزاد الواقعة في ساحة «سان جرمان»، وهي تراقب منادي المزاد العلني يقوم بعمله. أحست فجأة أن هناك من يراقبها، ومع أن «تشارلز» حسبها مستغرقة في المزاد، فقد استدارت ونظرت إلى رجل واقف في الناحية الأخرى من الغرفة يحدق إليها باهتمام. كان أطول من معظم الرجال

في القاعة، أسمر البشرة ونحيلا. تقاسيم وجهه غير منتظمة لكنها أكثر جاذبية من التقاطيع الوسيمة. عينان غائرتان، خدان عاليان، أنف بارز وفم به نوع من الالتواء القاسي. تذكرت أنه كان يرتدي بزة من المخمل الكحلي وقميصًا من الحرير. لم تلتق «هاريت» من قبل أحدًا يشبهه، أما الطريقة التي كان ينظر بها إليها، فجعلتها تحس بالضعف والخوف الداخلي. لم يكن مثل الشبان الذين عرفتهم، ولا مثل «تشارلز» الذي كان بدينًا، قصير النظر وأصلع، أيقنت أن هذا الرجل في الثلاثينيات، أي أصغر من «تشارلز» بعشرين سنة، وواثق بإعجاب النساء به. أحست بالذعر عندما أثار مناسبة ليتكلم إلى «تشارلز»... وبالتالي إليها. لكنها أدركت الآن أنه لم يكن هناك داع للخوف في حينه. كان رائعًا وجذابًا ومن السهل التحدث إليه. سألها عن عملها وعن طموحاتها وكم من الوقت ستبقى في «باريس». جعلها تشعر بأنها شخص مميز. وعندما غادرت قاعة المزاد كانت تحس بنشوة دامت حتى أعادها «تشارلز» إلى الواقع. في اليوم التالي اتصل بها هاتفيًا فنسيت توصيات «تشارلز» وقبلت تناول العشاء معه في تلك الليلة. لم يوافق «تشارلز» لكنه لم يستطع منعها، وحتى لو فعل لكانت تجاهلته. اصطحبها «أندريه» إلى مطعم في «مونمارتر». أوصلها إلى فندقها رأسًا، وخجلت من نفسها عندما أحست بخيبة وهو يقبل يدها متمنيًا لها ليلة سعيدة. ووبخها «تشارلز» قائلاً:

- هل فقدت عقلك؟ لو عرف أهلك بهذا التصرف فما عساهم يقولون؟ فأجابته بحزم واحترام:

- إنني في الثامنة عشرة من العمر يا سيد «هوكني» وأهلي لم يتدخلوا أبدًا في اختياري لأصحابي. كتمت عنه أن والديها يعرفان جميع أصحابها عبر أهلهم أو شقيقاتها الأكبر سنًا، ومن جهة ثانية لم تشعر أبدًا بالنشوة التي أحستها مع «أندريه» وكانت غبية عندما اعتقدت أنها تسيطر على الموقف. مخاوف «تشارلز» كانت في غير مكانها ؛ لأنها بعد تلك الليلة لم تر «أندريه»

www.rewity.com

ثانية إلا بعد عدّة أسابيع. عادت بصحبة «تشارلز» إلى «لندن»، وعلى الرغم من الإحساس بالفراغ كلما تذكرت «باريس» استطاعت أن تتحمل متاعب الحياة. في هذه الأيام كانت تقيم مع والديها في «غيلفورد» وتذهب كل يوم إلى «لندن». هذا يعني السرعة في الصباح والهرولة في المساء، لكن والدتها تحبذ هذا التدبير و «هاربيت» لا تمانع. كانت تلتقي بعض الناس في عملها إلا أن جميع أصدقائها يقيمون في «غيلفورد»، ولو لم تتواجد هناك لحرمت من الحفلات الراقصة والاجتماعات التي تذهب إليها مع الأصدقاء. كانت وحدها في المخزن ذات يوم حين دخل «أندريه»، وقد فقدت الأمل بمشاهدته ثانية وأصبحت مقتنعة بأن ما قاله «تشارلز» صحيح، وهو أن «أندريه» يتلاعب بعواطفها، وأنها محظوظة لأن القصة انتهت دون أن تخلف جراحًا. مجيئه المفاجئ أربكها، وبدا متغيرًا كأنه كبر سنًا أو فقد شيئًا من وزنه. حياها وكأنه فقد أيضًا شيئًا من جاذبيته التي عهدتها، والشيء الوحيد الذي لم يتغير نظرة عينيه اللتين قالتا لها إنك متعة للنظر. وسألته لعجزها عن قول شيء آخر:

– ماذا تفعل في «لندن»؟ لكنه تجاوزها إلى داخل المخزن فلحقت به إلى الغرفة الخلفية. «تشارلز» لم يكن يسكن فوق المتجر، بل في منزل مريح في «سانت جونز وود» وهذه الغرفة كانت مخصصة لاستضافة الزبائن.وعلق «أندريه» قائلا:

– رب العمل ليس هنا، رأيته وهو يغادر المكان. ثم نظر إليها سائلاً:

– قولي لي، هل أردت لقائي ثانية؟ عندما عاد «تشارلز» إلى المخزن كان الباب مقفلا والستائر مسدلة واضطر إلى أن يحدث ضجيجًا لوقت طويل قبل أن تأتي «هاربيت» لتفتح له. شعر بأنه قطع عليهما خلوتهما، وتساءلت «هاربيت» كيف لم يطردها من العمل. لكنه جلس يرشف القهوة ويتحادث مع «أندريه»، بينما أخذت هي ترتيب الأمور. لم تفهم كيف استطاع «أندريه»

أن يبدو هادئًا بعد كل ما حصل. إلا أنها لاحظت ارتجاف يده وهو يرفع فنجان القهوة. لاحظت كذلك أنه ليس مرتاحًا كما يبدو. تصرفها أفزعها إذ لم تتصور أنها تستطيع التصرف بهذا الطيش دون أن تحس بتأنيب الضمير. كيف سمحت لـ«أندريه» بأن يغازلها؟ هذه أول مرة تتصرف فيها على هذا النحو مع رجل. ولو لم يعد «تشارلز» في الوقت المناسب لكانت فعلت كل ما طلبه منها «أندريه». اعترفت لنفسها بهذا لأنها تعودت أن تكون صريحة مع ذاتها. كانت غير مرتاحة لما حدث، وكأنها وجدت شخصية أخرى بداخلها لم تعرفها بعد. أهي كالفتيات اللواتي قرأت عنهن، يلقين بأنفسهن في حضن أي رجل؟ لكنها توغلت في الماضي، وأيقنت أن الحياة ربما سهلت عليها لو كانت مثل هؤلاء النساء. وفي السنوات التي تلت خيانة «أندريه» اشتاقت إلى أن تشعر بعاطفة نحو أي رجل آخر، لكن أحاسيسها جمدت، والبرودة التي نعتت بها كانت في مكانها. إنما في ذلك الزمان، سيطر عليها خوف كبير من ألا ترى «أندريه» ثانية. أما هو فكانت الحالة غير طبيعية بالنسبة إليه، لأن «تشارلز» كان يتصرف معها وكأنه والدها، ولا شك في أن النسوة اللواتي يخالطهن «أندريه» كانت لديهن خبرة في هذه الأمور، فلا يحتاج إلى الاختلاء بهن في الغرفة الخلفية لمخزن أثريات، وتصورت الشقق المضاءة بالشموع والمفروشة بجلود النمور... ما عادت تهتم بجاذبية شعرها الاسكندنافي الأشقر، ولا لتفتح صباها الذي لا يستطيع أي تبرُّج تقليده. لم يكن خوفها في محله، ففي الأشهر الثلاثة التي تلت هذه الحادثة، أمضى «أندريه» أوقاتًا طويلة في «لندن»، حيث كان يطير إليها من «باريس» صباح السبت ويعود مساء الأحد. لم يوافق «تشارلز» على ما كان يجري لكنه أدرك أنه لا يستطيع تغيير رأي «هاربيت» بالنسبة إلى «أندريه لاروش». والداها كانا أقل تفهمًا. لقد التقيا بـ«أندريه» في عدة مناسبات لكن والدتها وجدت فارق السن بينهما كبيرًا. أما والدها فلم يكتف بتلميحات «أندريه» العفوية

www.rewity.com

إلى بيته في «فرنسا»، بل أراد أن يعرف شيئًا عن عائلته وكيف يكسب قوته، و«هاربيت» بدأت تقلق كلما تهرب «أندريه» من الإجابة. علاقته معها لم تكن مرضية. كان عليهما أن يلتقيا دائمًا في الأماكن العامة، فلم ينفردا ببعضهما أبدًا. في الحقيقة، كانت مرتاحة لذلك مع العلم أن أحاسيسها كانت تتطلب مزيدًا من الألفة، ولم تعد تثق بنفسها من ناحيته، وتربيتها أجبرتها على أن تتقيد بالمبادئ الأخلاقية التي يتمسك بها والدها. لكن كل ذلك لم يمنعها من الأحلام، وطالما عادت بها الذاكرة إلى اللحظات التي قضتها معه في مكتب «تشارلز»، متمنية لو لم يقطع عليهما «تشارلز» ذلك اللقاء. ولأسابيع عديدة تذمرت والدتها؛ لأن «أندريه» لم يقدم «هاربيت» إلى عائلته كما تعرف هو بعائلتها. ألم ترغب «هاربيت» في لقاء عائلته؟ ألا تفكر في أنه يجب عليها ذلك؟ أصبحت الفتاة ثائرة الأعصاب ومكبوتة. فقالت لـ «أندريه» ما كانت تردده والدتها، ولم تصدقه عندما قال لها إنه فقد والديه. وسألته بارتياب:

– مع من تعيش إذن؟ لكنه رفض المناقشة حول هذا الموضوع وأجابها بنعومة:

– ما الفرق؟ هذا الموضوع يخصنا وحدنا. فأجابته:

– أنت التقيت بعائلتي. فقال بلهجة لا مبالية:

– أنت التي أردت ذلك دون أن أطلبه منك. أغاظها بعدم اكتراثه فسألته محتدة:

– تقصد أنك لم ترغب في ذلك؟ بعد لحظات كانا يتشاجران بعنف، وأخرجت كل ما تكدس في جعبتها من مرارة وحسرة على نفسها في الأسابيع الماضية... لم تلاحظ أنه لم يشترك في النقاش، ثم نهض من مكانه وتركها وحيدة في مقصف المطار. الأيام التي تلت هذه الحادثة كانت مؤلمة جدًا بالنسبة إلى «هاربيت». وصارت تذهب من البيت إلى العمل كأنها دمية مسيرة. ثم أخبرت أمها بأن كل شيء قد انتهى بينها وبين «أندريه»، إنما لم تذكر السبب. ربما

حزر والداها لكنهما لم يسألاها عن التفاصيل. وتساءلت «هاربيت» عما إذا كانت تستطيع أن تسامحهما يومًا على ما فعلاه بها. بعد أسبوعين، اتصل بها «أندريه» هاتفيًا وفي وقت كان يعلم أن «تشارلز» في فترة الغداء. وعندما سمعت صوته اصطكت ركبتاها من الضعف... سألها:

– هل سامحتني أنت؟ مضت ثوان من الصمت، قال بعدها «أندريه»:

– كنت أود الاعتذار فقط يا «هاربيت»، ولأسمع صوتك مرة أخرى. صدقيني، لست أنت الملومة على أي شيء. ملأها الذعر فأجابت هاتفة:

– ماذا تقصد؟ متى أراك؟

– لن تريني بعد اليوم، لن أزور «لندن» ثانية.

– لكن يا «أندريه». كانت يدها الممسكة بسماعة التليفون تتصبب عرقًا. وأردفت:

– «أندريه»، أود أن أراك ثانية. أجابها بخشونة:

– لا فائدة من ذلك، والداك على حق. أنت تحتاجين إلى رجل أصغر سنًا... شخص مثلهما يعيش بحسب مفاهيمهما ومثلهما. أحست «هاربيت» بالخجل وفقدت صوابها وهي تحتج بيأس:

– أنا لا أبالي بهما! لا تهمني مثلهما... وعندما سمعها تجهش بالبكاء قاطعها قائلاً بوحشية:

– أنت لا تقصدين ما تقولين؟ والدتك تعلم أنني لا أستطيع مشاهدتك بلا... وانقطع عن الحديث فجأة وخافت أن يكون قد أنهى المكالمة، فتوسلت قائلة:

– أرجوك، دعني أحضر لأراك. اسمح لي بأن أجيء إلى «باريس»، بإمكاني أن أدّعي السفر مع السيد «هوكني». أرجوك يا «أندريه»، لا ترفض طلبي. لم يكن من السهل إقناعه، ومع أنها عرفته جيدًا فقد تساءلت عما إذا كان قد فشل في ردعها. وهكذا ذهبت إلى «باريس»، وقضت عطلة نهاية الأسبوع

www.rewity.com

معه في فندق في شارع «ريفولي». رغم كل ما حدث بعد هذا اللقاء اعتبرت «هارييت» هذه العطلة أجمل ما في حياتها. بدت «باريس» كأكثر مدن العالم رومانسية، وهي في الثامنة عشرة من العمر ومغرمة برجل استطاع أن ينسيها كل شيء. كان ينتظرها في المطار فركضت إليه وضمها إلى صدره فنسيت تعاسة الأسابيع التي فرقتهما. لكن العودة إلى «لندن» كانت أسوأ مرحلة. فقد توقعت إلى حد ما أن يطلب منها «أندريه» البقاء إلى جانبه، أو على الأقل أن يعود معها إلى «لندن». لكنه لم يفعل. رافقها إلى المطار، وحياها بيده بينما كانت الطائرة تهم بالإقلاع. وهذه كانت آخر مرة رأت فيها «أندريه». تسلمت منه رسالة وبعد قراءتها ألقت بها في النار. بعد وقت قصير، استأجرت شقة في المدينة، ومع أن أمورًا عديدة حدثت وعقدت صلحها مع والديها، فلم تسامح نفسها على الطريقة المخجلة التي عاملتهما بها. كان «تشارلز» الإنسان الوحيد الذي أحس وتفهم ما قاسته. ساعدها على أن تجد شقة لتعيش فيها. ردت له الجميل بالعمل بجدية ونشاط لترفع ثقل العمل عن كاهله، كانا مثل شريكين وليس كرئيس ومرؤسة. وعندما قتلت شقيقتها الكبرى وزوجها، اقترح «تشارلز» عليها أن تأخذ الفتاة بعيدًا وتذهب بها.

– إنك تحتاجين إلى إجازة. وكان هذا صحيحًا لأنها لم تحصل على إجازة منذ عيد الميلاد وقد بدأت تحس بالإرهاق. لكن كيف ستحصل على الراحة ما دام «أندريه لاروش» إلى جوارها؟ ما عسى «تشارلز» أن يقول لو علم بالأمر؟ وماذا سيقول والداها؟ نهضت الآن عن كرسيها، وسارت عبر البوابة المؤدية إلى الدرب. اقتلعت بعض الأعشاب وأخذت تمضغها وهي غائبة عن الواقع تنظر إلى الأشجار التي حجبت الجدول عن النظر. لو سلكن الدرب نفسه الذي سلكه «أندريه»، هل تصل إلى بيته؟ ماذا عسى زوجته أن تقول لو وصلت دون دعوة، وعائلته؟ تساءلت عن عدد أطفاله وفكرت في غضب، إنه يستحق أن تذهب إلى بيته وتعرّف نفسها. تخيلت ذهوله لو عاد إلى البيت

ورآها جالسة مع زوجته، وأخذ يتساءل عن الأشياء التي باحت بها. قلصت شفتيها فاقدة الصبر وقالت في نفسها: «يا إلهي، هل سأمضي الإجازة كلها وأنا أتحسر على الماضي؟» الماضي مات! كم مرة يجب أن تذكر نفسها بهذا! وفي طريق عودتها إلى البيت تذكرت «بول» وأيقنت أنه كان في السابعة من العمر عندما قضت العطلة مع والده في «باريس».

– 4 –

في الأيام القليلة التالية، وجدت «هارييت» أن لديها أعمالاً كثيرة لتملأ فراغها. ذهبت إلى «روشلاك» وعدا الأغراض الأساسية التي اشترتها مثل الحليب (اللبن) والبيض والخبز، ابتاعت طلاء وفُرُشًا وقماش ستائر. كان الصالون هو الغرفة الوحيدة التي لها ستائر غير أنها كانت في حالة يرثى لها، والأثاث الجديد يستحق ستائر أفضل. الخياطة باليد ستكون شاقة، لكن باستطاعة «سوزان» المساعدة بينما تقوم هي بطلاء الجدران. انتظرت أن يعود «أندريه» لتشكره على الأثاث الذي أرسله، لكنه لم يأتِ وأحست بالانزعاج من ذلك. أرادته أن يأتي فتشكره وينتهي الأمر، لا أن يجعلهما تنتظرانه لأجل غير مسمى تمشيًا مع عاداته. ثار غضبها ومسحت بقعة من الدهان لطخت رداءها الأزرق البحري. مع نهاية الأسبوع بدأ البيت يكتسب جمالاً. زينت حيطان المطبخ البيضاء بعدد من الصور التي وجدتها في سوق «روشلاك»، أما الخزانة الصغيرة فبدت أجمل عندما طُليت باللون الأصفر، وعدد من قطع السجاد الصغيرة بُسطت على الأرض. القنديل المتدلي من السقف كان يبرق لأنه فُرك جيدًا. نال الصالون وغرفة النوم حظهما من التنظيف والدهان والترتيب، مع أن «هارييت» كفت عن محاولاتها العديدة لإقفال النوافذ. أما العليّة فظلت الجزء الوحيد من البيت الذي لم تكتشفه، إذ كانت تؤجل مضايقة العنكبوت

www.rewity.com

المعشّس هناك، وحتى تعهد إلى «سوزان» بالقضاء على الحشرات الزاحفة لم تغير رأيها. عندما أصبح البيت على ما يرام قررت «سوزان» استكشاف الجوار، فهما لم تعطيا «بيناك» و«كازيناك» إلا اهتمامًا عابرًا وبخاصة أن الضاحية المحيطة بهما مليئة بالقصور والقلاع. ومن نقط المراقبة الموجودة على سور قصر «بيناك» كانت مشاهدة وادي الـ«دوردون» ممكنة. قررت «هاربيت» أن تزور قلعة «نود» الواقعة على ضفة النهر المواجه لـ«بيناك». في خلال حرب المئة سنة احتل الإنجليز قلعة «نود»، وجرت عدة معارك دامية بين الجيشين المتخاصمين، وهذه المنطقة غنية بالتراث التاريخي، وقد عُثر في الكهوف والمغاور على بقايا هياكل عظمية ورسوم لسكان الكهوف. وبينما «سوزان» تغسل أطباق الإفطار قالت لخالتها:

– لنبدأ أولاً بزيارة القصر الموجود هنا. أقصد إذا كان صحيحًا أن مجموعة فنادق أمريكية تود أن تشتريه – كما قال السيد «لاروش» – فلا بد من أن يكون رائعًا. فأجابت «هاربيت»:

– لا أظن أن موقعًا كهذا ينال إعجابهم. وأكملت وهي تفحص درجة السمرة التي اكتسبها جلدها:

– المالكون القدامى كانوا يعرفون أين يبنون قصورهم،كانوا يقيمون قلاعهم في أفضل الأماكن حيث المناظر الخلابة، وفي الأراضي التي تصلح لحماية قلاعهم. أظن أن مجرد استطاعتهم أن يكشفوا ما حولهم على مد النظر نوع من التحصين ضد الغزوات.

– أريد أن أرى هذا القصر على أية حال. أجابتها «هاربيت»:

– لا أجد مانعًا لذلك. كنت سأقترح زيارة «كاهورز»، إنما نستطيع تأجيل هذه الزيارة إلى يوم آخر. نشفت «سوزان» يديها ثم قالت:

– ألا تمانعين حقًا؟ ابتسمت «هاربيت» وأجابت:

– لماذا أمانع؟ أعتقد أنه سيكون يومًا حارًا، ومن الأفضل ألا نبتعد أكثر من

بضعة كيلومترات عن «روشلاك». وجدتا سيارة الفيات ساخنة بعد وقوفها في الشمس لبضع ساعات. وفتحت «هاربيت» جميع النوافذ قبل أن تصعد إليها. كانت ترتدي بنطلونًا قصيرًا وقميصًا برتقالي اللون دون كمين، وجلد ذراعيها تكسوه سمرة عسلية جذابة. جلست «سوزان» بقربها وهي تلبس ثيابًا مشابهة. وسألت:

– هل سأشبهك في يوم من الأيام؟ ليت شَعري كان أشقر مثل شعرك! فردت «هاربيت»:

– إن حمراوات الشعر يلفتن النظر أكثر من غيرهن. وتابعت وهي تبتسم:

– بالطبع ستكبرين كما كبرنا. تذكري دائمًا أنه من الأفضل أن يكون المرء نحيلاً وليس سمينًا. فجعدت «سوزان» أنفها قائلة:

– في المدرسة فتيات ذوات قامات رشيقة. أدارت «هاربيت» محرك السيارة وقالت:

– هل هن طويلات القامة؟

– تقريبًا بطول قامتي، أي حوالي 155 سم.

– وما قياس الحوض لديهن؟

– لا أعلم.

– على فتيات الرابعة عشرة من العمر ألا يبالين بهذه الأمور.

– لكنهن يلقبنني بـ«العظام» لنحول جسمي. استطاعت «هاربيت» أن تخفي ضحكتها ثم قالت:

– لو كنت مكانك لما سمحت لهذا الشيء أن يؤثر فيّ، سوف تتغيرين مع الوقت. زمت «سوزان» شفتيها وغمغمت:

– هذا الشاب... «بول». وتوقفت قليلاً لتفهم خالتها عما تتكلم ثم تابعت:

– إنه لم يعرني اهتمامًا إذ كان منهمكًا في النظر إليك. هل تظنين أنك جذبته؟

www.rewity.com

– أوه، يا إلهي! وتجنبت «هاربيت» في آخر لحظة الاصطدام بحصان يجر عربة محملة بالقش ظهرت فجأة على منعطف الطريق. ردة فعلها كانت عفوية وأخفت أي جواب كانت قد تضطر إلى إعطائه على ملاحظة الفتاة. وعندما استعادت رشدها أجابت ببساطة:

– كان يحاول إظهار رجولته فقط يا «سوزان». فأصرت «سوزان» قائلة:

– إنك أعجبته. لقد لاحظت ذلك، ولم لا وأنت تجذبين الرجال كما يجذب الرحيق النحل؟ شهقت «هاربيت» وأجابتها:

– لا تبالغي. أنت صغيرة السن لتدلي بتصريح كهذا، يا للسماء! أنت تتكلمين مثل... توقفت «هاربيت» عن الكلام مرتبكة وأيقنت بغضب ماذا كانت على وشك أن تقول، لكنها لم تخدع «سوزان» التي تمتمت بحزن:

– في الواقع والدتي قالت ذلك حين سألتها عنك في أحد الأيام: لماذا لا تتزوجين... أجابت... إنك لست من النوع الذي يستقر مع رجل واحد. جفلت «هاربيت» عند سماعها هذا التعليق وقالت:

– فهمت.

– هل أنت غاضبة؟ ونظرت «سوزان» إلى خالتها بقلق، وحاولت «هاربيت» أن تبتسم وهي تجيب:

– طبعًا لا. فكرت وهي تنعطف على منحنى متعرج في الطريق، إن ما قالته أختها عنها آلمها إذ ظنت أن وجود المعجبين حولها دليل على طيشها هي وليس على طيشهم. اعتقدت «هاربيت» أنها ستضطر إلى المرور بـ «روشلاك» بالسيارة لتصل إلى القصر، لكن على مشارف القرية رأت لافتة كتب عليها أن الطريق إلى القصر يمر في درب ضيق مظلل بالأشجار، ويسمح بالمرور لسيارة واحدة فقط. توقفت «هاربيت» مترددة ونظرت حولها ثم قالت:

– سنسد الطريق إذا ذهبنا بالسيارة إلى هناك. والله وحده يعلم ماذا أفعل إذا صادفت سيارة أخرى.

– إذن لنمش. من المؤكد أن القصر ليس بعيدًا. اقترحت «سوزان» ذلك، وفي اللحظة نفسها فتحت الباب. ترجلت «هاربيت» من السيارة، ونظرت بشك إلى السماء الزرقاء. كانت الشمس ترتفع عاليًا وبعد قليل أمست فوق رأسيهما ترددت ثم قالت:

– لا أعرف، ربما إذا سرنا إلى القرية نجد طريقًا معبدة. فتوسلت «سوزان» بحماسة:

– أوه! لنذهب من هذا الطريق وإذا لم نصل في غضون نصف ساعة نستطيع العودة. وافقت «هاربيت» لكنها أردفت:

– يجب أن أوقف السيارة بعيدًا عن الطريق، في ظل الأشجار لتحميها من حرارة الشمس. استمر الدرب ينحدر لوقت قصير، ثم انعطف بانحدار أقوى ووصل فوق الغدير الضيق. كانت ضفة الجدول مشجرة بكثافة ومكسوة بالأعشاب والأشواك المزهرة، والنباتات الزاحفة تفوح منها رائحة العشب الزكية. في جزئه الأسفل، توسع الغدير وأصبح شلالاً سريعًا يتساقط فوق الحجارة المغطاة بالخنشار. نظرت «هاربيت» إلى الغدير عابسة وقالت:

– هذا هو جدولنا، إنني متأكدة. انظري! وأومأت إلى البعيد قائلة:

– أليس منزلنا هناك؟ شهقت «سوزان» وهتفت:

– هو بيتنا حقًا. لا بد من أن هذا طريق مختصر يوصل إلى القرية. قالت «هاربيت»:

– كنت أتساءل عن هذا. تابعتا الطريق فوصلتا إلى جسر يقطع الجدول. انتهى الدرب عند هذه النقطة. وخمنت «هاربيت» أن القصر يقع على قمة الهضبة التي تتسلقانها. شعرتا بالحر الشديد بعدما سارتا أكثر من نصف ساعة، ولم ترغبا في العودة. هذه مغامرة وكانت «هاربيت» تحس بالحماس نفسه الذي تحسه «سوزان» لبلوغ الهدف. وصلتا إلى أرض مكشوفة ومن هنا لمحتا القصر لأول مرة. كان جاثمًا على صخرة شامخة ووعرة وأبراجه

www.rewity.com مرموز

المتعرجة تبدو صفراء من انعكاس أشعة الشمس. لهثتا وهما تصعدان بين الجذور والنباتات الزاحفة حتى وصلتا إلى حافة صخرية كأنها ممشى حول جدران القصر الخارجية. كان المنظر من هنا رائعا يضم مشهد سطوح بيوت القرية وفروع النهر. من بعيد ظهرت أبراج قلعة أخرى متجهة إلى السماء، وحول القصر بيارات الأشجار المثمرة التي أعطت نوعًا من المناعة للقصر. بدا أن الجدول يختفي تحت القصر، وكانت «هاربيت» تتأمل هذه الظاهرة عندما قاطعتها «سوزان» بصوت هادئ:

– ألا تظنين أن ذلك «بول لاروش»؟ نظرت «هاربيت» بسرعة، وبالفعل كان ابن «أندريه» يقفز في اتجاههم على الممر الضيق، ولم تستطيعا تحاشيه إلا إذا هربتا في الاتجاه المعاكس. حياهما بلا اكتراث بينما انتشرت على ملامحه الجذابة ابتسامة كسولة وأردف:

– لم أعرف أن لدينا ضيوفًا. أجابت «هاربيت»:

– لم نأت لزيارتكم، كنا نرغب فقط في مشاهدة القصر. فضاقت عيناه بإعجاب عندما استوعب جمال محياها وقال:

– إذن يجب أن تسمحا لي بمرافقتكما لزيارة القصر. عادة لا يفتح القصر للسياح إنما أعتقد أن في استطاعتنا بصورة استثنائية أن نفتحه. أجابته «هاربيت»:

– لن نقبل خدمة كهذه. خاب أملها لأنها قامت بالرحلة من أجل لا شيء ورمقته بنظرة ثاقبة. ثم قالت لرفيقتها:

– هيا بنا يا «سوزان».

– كلا، انتظرا. وأمسك «بول» بذراعها ثم أفلته عندما نظرت إليه بحدة، وقال متلعثمًا:

– أرجوك... أود... أن أريكما المكان. فنظرت «سوزان» إلى «هاربيت» تناشدها قائلة:

– من فضلك، دعينا نتفرج، لقد سرنا وقتًا طويلاً... تنهدت «هاربيت» ثم قالت:

– يبدو أن هذا العقار ملك خاص... قاطعها «بول»:

– أرجوك، لا داعي للهرب. فحدقت «هاربيت» إليه وأجابت:

– أنا لم أحاول الهرب! ثم حولت نظرها عنه بسرعة وأردفت:

– حسنًا، كيف ندخل القصر؟

– سأريكما. ابتسم «بول» وقادهما إلى الدرب الذي أتى منه. سار الثلاثة قرب سور القصر المتعرج، وعندما ابتعدوا عن الوادي الضيق العميق، أخذ الممر يتسع وأصبح مظللاً بالأشجار. بعد بضع أمتار وصلوا إلى نوع من الحدائق الكبيرة التي تواجه القصر... هكتارات من الحشائش الناعمة كالحرير، بدت تحتاج بشدة إلى التقليم. ورأت «هاربيت» الغابات وراء الحديقة حيث تخيلت كونتات «روش فورت» القدامى يصطادون الغزلان البرية. وكبقية المكان أصبحت النباتات والخضروات تنمو عشوائيًا. كان القصر أكبر مما تصورت ومجهزًا بأبواب حديدية ضخمة تفتح على الساحة الداخلية. نوافذ تبدو كأنها فارغة. اتشح المكان بصبغة من الإهمال لكن هذه الحالة لم تطغَ على دقة وجمال النقوش والزخرفة على الجدران، قال «بول» بتهكم:

– أربعمائة عام من التاريخ تتهدم لتصبح غبارًا! قالت «سوزان» متأثرة:

– هل القصر بهذا القدم؟ فهز «بول» رأسه وقال شارحًا:

– أعيد ترميم معظم هيكله في القرن التاسع عشر، وفي أثناء الحرب احتل من قبل الألمان ونهب تمامًا. مات أجدادي في أثناء الاحتلال.

– آسفة لذلك. وبينما «هاربيت» تقدم تعازيها، جال في خاطرها أن «أندريه» أخبرها بهذه الواقعة قبلاً. هز «بول» كتفيه غير مبال وتقدم نحو البوابات الحديدية، فقالت «هاربيت»:

– انتظر! لا نريد الدخول.

www.rewity.com

– ولمَ لا؟ أومأت «هاريت» بضعف وهمست:

– هل القصر مسكون؟ قطب «بول» حاجبيه وأجاب:

– البيت الصغير عند المدخل مشغول فقط. ألا تعلمين ذلك؟ أجابته «هاريت»:

– أعرف؟ ماذا أعرف؟ رد «بول» بدهشة:

– إننا نسكن البيت الصغير. تمنت «هاريت» لو انفتحت الأرض وابتلعتها. كان من السهل أن تلهو وتتصور رد فعل «أندريه» عند دخولها مسكنه. لكن الاقتحام الفعلي كان شيئًا آخر. قالت «سوزان»:

– هل تسكنون هناك في البيت الصغير؟ إنه لشيء مثير! لم يكن عند «سوزان» تحفظات خالتها، فنظر إليها «بول» باستعلاء ثم التفت إلى «هاريت» قائلاً:

– ما الأمر؟ ألا ترغبين في رؤية القصر؟ أعدك أنه ليس متداعيًا كما يبدو للعين. رفعت «هاريت» شعرها بيد مرتجفة وبدأت تقول:

– ليس الأمر هكذا. وعندما خرج رجل من باب البيت الجانبي ووقف ينظر إليهم. كان ذلك الرجل «أندريه». لم تكن تحتاج إلى النظر إليه لتحس بتقلص عضلات معدتها. فقربه منها أرسل ذبذبات سيِّئة طعم العلقم في حلقها. لاحظهم على الرغم من أن أشعة الشمس كانت في عينيه وتقدم نحوهم. لاحظ «بول» عدم ارتياح «هاريت» فالتفت حوله وقطب عندما رأى والده ثم زمجر قائلاً:

– أتساءل عما إذا كان يعرف أنك تخافينه.

– كلا، لا أخافه. وصل «أندريه» قربهم، وضاقت عيناه السوداوان عندما سمع همساتهم الحارة وقال ناظرًا إلى «سوزان»:

– إنها فرصة سعيدة مفاجئة. هل ينقصكما شيء؟ ربما لديكما بعض الشكاوي؟ كانت «هاريت» متضايقة جدًا من قصر بنطلونها، ومن لمحة السخرية التي

ارتسمت على وجه «أندريه». كان يرتدي بنطلونًا من المخمل المضلع البني وقميصًا من الحرير، ويبدو قاسي التعابير وباردًا، فتضايقت «هاريت» مما اعتبرته تطفلاً عليهما... هل حسبهما جاءتا لتبحثا عنه؟ لو علمت أنها ستلتقي به لبقيت على مسافة بعيدة من «روش فورت». خطر لها أنه يمكن أن يكون وكيلاً لهذا القصر ولذلك عرف ابنه «بول» كل هذه التفاصيل عن المكان، أو موظفًا عند النبلاء ويدعي ملكية هذا العقار. سرحت أفكارها، هل من الممكن أن يكون مالك البيت الذي اشترته؟ وهل صحيح أن البيت تابع للقصر؟ وسمعت «سوزان» تقول له:

– أردنا مشاهدة القصر. إنه في غاية الجمال، أليس كذلك؟ ما أجمل تلك القبة الصغيرة! أهي مدخنة؟ نظر «أندريه» إلى البناء بسرعة وقال:

– إنها في الواقع قبة الجرس. من سنين طويلة وفي أيام الثورة، كانت القرية تعاني فقرًا كبيرًا. أجدادي كانوا يقرعون الجرس وكل من يأتي لدى سماع صوته يقدمون له صحنًا من الشوربة وقطعة خبز. وتابع بسخرية:

– مع الأسف هذا لم يمنع أن تتدحرج رؤوسهم، ولحسن حظي، استطاع أحد أولادهم الهرب إلى «إنجلترا». لم تعد «هاريت» تفهم كلمة واحدة مما قاله بعدما ذكر كلمة أجداده. هل يعني هذا أنه الكونت الحالي لـ«روش فورت»؟ رفَّت بعينيها فنظر إليها «بول» بشيء من السخرية وقال:

– هل دخل شيء في عينك يا آنسة «إنغرام»؟ فزمت «هاريت» شفتيها بغضب وأجابت ببرود:

– كلا، لكن أشعة الشمس قوية. كان واضحًا أن «بول» لم يصدقها لكن كلماتها جذبت انتباه «أندريه» الذي قال:

– ربما تودان تناول العصير معنا. وبعد ذلك، إذا أحببتما، يأخذكما «بول» لتتجولا في أرجاء القصر. أظهرت «سوزان» تحمسًا لهذه الفكرة لكن «هاريت» هزت رأسها قائلة:

www.rewity.com

– يجب أن نعود لأننا أطلنا النزهة، وقد تركت السيارة في مكان غير مناسب.

تجاهلت خيبة أمل «سوزان»، وسألها «أندريه» مقطبًا:

– هل أتيتما بالسيارة؟ تنبهت «هاربيت» إلى أنه اعتقد أنهما جاءتا إلى هنا عمدًا، فكرهته لوقاحته، وقالت أول شيء خطر في بالها وهي تأمل ألا تناقضها «سوزان»:

– كنا في طريقنا إلى «كاهورز» في الواقع. سرها على الأقل رؤية الاستغراب على وجهه لكن فرحتها لم تطل لأنه أجابها:

– ألا تظنين أنكما سلكتما الطريق الغلط؟ فاحمرت وجنتاها عندما اعترفت بأنها غير متأكدة، وتابع قائلاً:

– كان عليكما أن تسلكا طريق «بلسوربو» لا طريق «روشلاك». أخفت «هاربيت» استياءها وقالت:

– إني أشكرك على إرشاداتك أيها السيد. ثم حيت «بول» وهمت بالانصراف لكن «أندريه» تقدم إليها قائلاً:

– يجب أن تأتيا وتتناولا معنا الشاي في يوم من الأيام. لكنها لم تستوضح تعبير وجهه لأنه كان يطبق عينيه تقريبًا. وتساءلت عما إذا كان يحس كم تحتقره. وتابعت قائلة:

– لا أريد أن أكون متطفلة. أكد لها أنها غير متطفلة على الإطلاق، وأنهم يستقبلون عددًا قليلاً من الزوار هذه الأيام. تساءلت «هاربيت» ماذا فهم «بول» من هذا الكلام ذي الحدين؟ وقد سرها أن «سوزان» صغيرة السن ولا تفهم دقائق العبارات التي تبادلتها مع «أندريه». أما «بول» فكان ينظر إليهما باستغراب واهتمام. وقالت «سوزان» فجأة:

– لم تشكري السيد «لاروش» على الأثاث الذي أرسله. فصاح «بول» صيحة استهزاء وقلدها بسخرية، فنظرت إليه «سوزان» بدهشة وقالت:

– ما الأمر؟ فكرر «بول» كلمتي السيد «لاروش» مبديًا حركة غير مستحبة

موجهة لـ «هاربيت»، فوبخته قائلة:

– ما دام والدك يوافق على أن نناديه بالسيد «لاروش»، فلا أرى مبررًا لتحقيرنا لأننا نناديه بهذا الاسم. وإذا كنت نموذجًا لأبناء الأرستقراطيين فليتهم يتبرأون منك. ثم أمسكت بذراع «سوزان» وقادتها بسرعة إلى المكان الذي أتيتا منه.

– لحظة من فضلك... قبضة يد «أندريه» وهي تمسكها من ذراعها جعلتها تقف على الرغم منها. تركت يد «سوزان» فجأة واستدارت تنظر إلى «أندريه» بوجل. لم تعرف «هاربيت» من تعالج أولاً، كانت تريد أن تنزع أصابع «أندريه» عن ذراعها وفي الوقت نفسه أن تواسي «سوزان». ونظرت إلى «أندريه» بغضب قبل أن تقول للفتاة:

– لا تنظري هكذا يا «سوزان»، فلا أحد يبغي إيذاءك. نظرت ثانية إلى «أندريه» بصمت كأنها تتحداه، فتركت يده ذراعها. لكن فمه أصبح خطًا واحدًا، وتساءلت عما إذا لم تكن متفائلة أكثر مما يجب. ارتاحت لأن «بول» قد اختفى، وحول «أندريه» نظره عن وجه «هاربيت» ونظر إلى الفتاة الصغيرة قائلا بهدوء:

– أعتذر عن تصرف ابني. آسف لأنه في السنوات القليلة الماضية أصبح فظًا. إنه ليس معتادًا الفتيات الإنجليزيات المهذبات. بللت «سوزان» شفتيها وقالت:

– لا بأس. ونظرت بخجل صوب خالتها وقالت:

– هل ستأتين؟ كانت «هاربيت» تهم بمغادرة المكان عندما تكلم «أندريه» للمرة الثانية:

– لحظة يا «سوزان»، سوف نلحق بك، إنني أرغب في محادثة خالتك على انفراد. انتفض رأس «هاربيت» فجأة وأجابته:

– لا أظن يا «كونت» أن لدينا ما نقوله. لكنها على الرغم من برودة جوابها

www.rewity.com مرمورية

خفضت نظرها إذ لم تتحمل نظرة «أندريه» النافية. وبحركة متضايقة أومأت ثم قالت لـ «سوزان»:

- اسبقيني يا «سوزان». لن أتأخر سوى دقائق قليلة. ترددت «سوزان» قليلاً ثم مشت على الدرب المنحدر الذي يقود إلى الوادي. وبقيت «هاربيت» واقفة مع «أندريه» في ظل شجرة الطقسوس الكبيرة. وعندما أصبحت «سوزان» بعيدة عن مرمى السمع، نظرت «هاربيت» إلى طرف حذائها وهي تحفر الأرض اليابسة وقالت لـ «أندريه»:

- حسنًا. ماذا تريد أن تقول؟ خيم جو من الصمت بينهما كأنه أصبح وجودًا بذاته. وأخيرًا، تكلم «أندريه» قائلاً:

- أدرك أن الوضع صعب يا «هاربيت» لكن لا ينفع أن تعامليني كأبرص!

رفعت رأسها بتحد وسألته:

- لم لا وأنت كذلك بالفعل؟ مرت فترة أخرى من الصمت ثم قال:

- هل تكرهينني يا «هاربيت» إلى هذا الحد؟ كان يبدو متعجبًا، وانفجر غضبها مرة أخرى فهتفت:

- ماذا كنت تنتظر؟ أن أفرح بمشاهدتك؟ أن أكون قد نسيت أنك حيوان أناني؟ تقلصت عضلات وجهه عند سماعه اتهاماتها، ورأت شريان عنقه ينتفض بسرعة من خلال قميصه المفتوح على عظام صدره القوية، وجلده مسمر وملطخ بالعرق. تأثرت بالمشهد فقال لها:

- العلاقة التي كانت بيننا كانت ستنتهي يومًا بمعرفتك للحقيقة. ارتجفت «هاربيت» ولم تستطع السيطرة على نفسها وقالت:

- أتريدني أن أكون شاكرة لك ذلك؟ التوت شفتاه. وتابع قائلاً:

- كلا. من الواضح أنك لا تشعرين بالامتنان.

- هل كان هذا كل ما أردت قوله؟

- كلا! شد على قبضته وتابع:

- من فضلك، أردت محاولة توضيح الأمر لك.

- التوضيح! وتراجعت إلى الوراء وتابعت:

- ماذا يمكن أن تفسر لي؟ خل عنك، اترك كل شيء... ودعني وحدي.

رفعت عينيها الخاويتين لتنظر إليه. لكن ما شاهدته في عينيه بعث الاحمرار من عنقها إلى وجهها. رأت سواد عينيه الملطخ بلون العنبر. يقول لها إنه لا يصدق كل ما شاهد وهو لا يحاول إخفاء عدم التصديق. ثم خفض نظره إلى جسمها وأخذ يتأمل تفاصيلها. صدمت «هاربيت» وخجلت من نظراته الجريئة، ثم أخذت نفسًا طويلاً وقالت:

- لا تنظر إليّ هكذا.

- وكيف أنظر؟ لم يكن هناك أي دفء في صوته، واستجمعت «هاربيت» كل قواها لإكمال ما أرادت أن تقوله:

- نظرتك غير لائقة. فسألها:

- هل هذه المرة الأولى التي أنظر إليك هكذا يا حبيبتي؟ ودون أن تتوقف لتفكر في العواقب تقدمت وصفعته بشدة على وجهه البارد المتهكم. وللحظات مخيفة تصورت أنه سيبادلها الصفعة. تحركت يده نحوها بعفوية ثم أوقف ردة فعله وانكمشت أسارير وجهه. وقال:

- هل تلذذت بذلك؟ هل أصبحنا الآن متعادلين؟ أجابت بصعوبة:

- لا شيء يجعلنا نتعادل. أنت... أنت... وأكمل عنها الكلام:

- حيوان أناني على ما أظن. الوصف إياه. وأخذ يفرك جلد خده المحمر، وقال:

- حسنًا يا «هاربيت» فهمت مرادك. أليست هذه العبارة المعهودة؟ تنهدت «هاربيت» وقد نضب منها كل تهجم. نكست رأسها وهي تحس بالفراغ وعدم الجدوى وتساءلت عن خيانة الجسم للروح. هل ستتخلص يومًا ما من هذا الرجل؟ رفعت رأسها عندما سمعت صوت قدميه يتلاشى على الدرب.

www.rewity.com

وأحست بكتلة تستقر في حنجرتها عندما رأته ذاهبًا. كان يفتح أزرار قميصه ليحس بالبرودة، يحرك منكبيه كأنه مثقل بالتعب. كانت تصارع رغبتها في الركض وراءه. وأحست بموجة شديدة من الوهن تسيطر على جسمها، فأغمضت عينيها من شدة إحساسها بالتعاسة المؤلمة. صلّت بصمت: «يا إلهي، لا تدع هذا يحدث لي!»

- 5 -

يد كأنها تريد أن تعبر عن شيء لمست ذراعها، ففتحت عينيها وشاهدت «سوزان» تقف إلى جانبها وتنظر إليها بقلق، ثم تهمس ملتاعة:

- «هاربيت»؟ ما الذي يضايقك؟ نظرت «هاربيت» حولها ولما تأكدت أنهما بمفردهما رفعت شعرها إلى الوراء وهزت رأسها بعنف وهي تجبر نفسها على الابتسام. تمتمت وهي شاردة الذهن:

- إنه الحر... نظرت إليها «سوزان» غير مصدقة وسألت:

- ماذا قال لك السيد «لاروش»؟ إن وجهك شاحب. قالت «هاربيت» متضايقة:

- لنعد إلى السيارة. إنني أحتاج إلى جرعة ماء. فأجابت «سوزان» بعبوس:

- إذن لماذا رفضت دعوة السيد «لاروش»؟ عرفت «هاربيت» أنه يجب عليها توضيح الأمور، فقالت وقد استطاعت السيطرة على صوتها:

- لن نستطيع الكلام هنا. على كل حال، إنه لا يدعى السيد «لاروش»، بل الكونت «دو روش فورت»، صاحب القصر.

- أحقًا ما تقولين؟ نظرت «سوزان» إلى جدران القصر وقالت:

- يا للعجب! ثم عبست وتابعت:

- وما الذي يدعو كونتًا إلى تنظيف الموقد؟ أجابت «هاربيت» بلهجة جافة:

- تستطيعين أن تسأليه هذا السؤال! هيا بنا يا «سوزان»، لنتحرك! لن نستطيع الوقوف هنا طول النهار. عبرتا الغدير و «هاربيت» تفكر. تساءلت ما عسى «أندريه» أن يقول لزوجته إذا ارتأى ابنه أن يخبرها بالزائرتين الغريبتين؟ على كل حال، رد فعلها تجاه سخرية الصبي كانت تفوق الإساءة، و «بول» لم يكن مخبولاً. وقالت لنفسها بشراسة، هذه مشكلة والده، ورفضت الاعتراف بالذنب الذي كان سيسيطر عليها. أسرعت وراء «سوزان» وأسنانها تصطك. إنها لحمقاء، فكرت في مرارة، لتسمح لـ «أندريه» بأن يتغلغل في كيانها. ألم تحظ بتعاسة كافية بسببه؟ ما عساها أن تكون، هل ترضى بالألم والذل؟ كانت السيارة شديدة الحرارة، و «سوزان» منهمكة في فتح الشبابيك بطريقة عصبية. جلست «هاربيت» وراء المقود، وأرجعت السيارة إلى الوراء وقادتها نحو البيت. سألت «سوزان»:

- هل سنذهب إلى «كاهورز»؟ لكن خالتها هزت رأسها وقالت بوجوم:

- نحن ذاهبتان إلى البيت. وكرست انتباهها للقيادة فقط. وعندما وصلتا البيت، كان من المستحيل تجنب المجابهة، وبإحساس من الحتمية أسرعت «هاربيت» في تحضير السلطة للغداء، وهي شاعرة باستياء ابنة أختها. وقفت «سوزان» في المدخل ورفعت رجلها لتضع الأخرى على برواز الباب، ثم قالت بعصبية:

- والآن! هل ستقصين عليّ كل ما حدث؟ أرادت «هاربيت» أن تكسب وقتًا فأجابت:

- كل ماذا؟ تنهدت «سوزان» قائلة:

- لا تجيبيني هكذا. أنت تعلمين ماذا أقصد. بالتحديد ما هو مقدار معرفتك بالسيد، أقصد، «الكونت»؟

- لم أعرفه جيدًا. ثم رفعت بصرها وقالت:

- «سوزان» لقد وجدت بعض الرشاد عندما كنت قرب الغدير هذا الصباح.

www.rewity.com

هل بإمكانك إحضار القليل منه؟ بدت على وجه «سوزان» تعابير تمرد وأجابت:

– لا أعرف الرشاد من غيره من الأعشاب.

– لا بأس سأحضره بنفسي. قطعت «هاربيت» المسافة إلى الباب المفتوح على البهو الصغير والذي يطل على الحديقة الخلفية، وقالت:

– يجب أن نبدأ بقطع هذه الأعشاب، فإذا أمطرت، سوف تبتل ثيابنا لدى السير في غمارها. أبدت «سوزان» استياءها وقالت:

– إذن أنت لا تريدين إجابتي.

– أوه يا «سوزان»! ونظرت «هاربيت» حولها بخيبة وأردفت:

– أنت صغيرة جدًا لتفهمي. أجابت «سوزان»:

– لكنك تعرفينه أكثر مما تدعين، أليس كذلك؟

– لقد... خرجت معه بضع مرات.

– متى كان هذا؟ احمر وجه «هاربيت»:

– منذ ثماني سنوات. نظرت إليها «سوزان» بتأمل فانكمشت شفتا «هاربيت» وتمتمت:

– نعم... كان رجلاً متزوجًا... وأكملت «سوزان» عنها وهي تعبس:

– ولديه عائلة، هل عرفت هذا أيضًا؟ فتحت «هاربيت» الباب بقوة وقالت:

– كلا. فتمتمت «سوزان»:

– لكن هو كان يعلم. فانتفضت «هاربيت». وتابعت «سوزان»:

– بدأت أفهم الآن.

– أحقًا؟ كانت «هاربيت» تشك في ذلك لكنها قالت:

– الآن سوف أحضر الرشاد. في اليوم التالي ذهبتا إلى «كاهورز»، وأبت «هاربيت» أن تفصح لماذا اختارت هذا المكان بالذات كأول زيارة تقومان بها.

ولكنها صممت ألا تدع «أندريه» يتصور أنهما ذهبتا إلى القصر لأي سبب آخر كما ذكرت. كان الطريق إلى «كاهورز» يمر بأرض جبلية تحد وادي نهر «اللوت». ووصلتا إلى المدينة فجأة، الأبراج والحصون ترتفع فوق النهر بروعة من العصور الوسطى، ونهر «اللوت» يحيط «كاهورز» من ثلاثة جهات. حزرت «هاربيت» أنه كان بمثابة حصن طبيعي، والجهة الرابعة يحدها سور يمتد من الشرق إلى الغرب. كانت تقطع النهر عدة جسور، أحدها من القرن الرابع عشر يدعى جسر «فالانتر» ويشار إليه في دليل السياحة أنه أجمل جسر في العالم، له أقواس ضخمة من الطراز القوطي وأبراج نحيلة، يشكل منظرًا مهيبًا. لكن «هاربيت» كانت قد زارت «البندقية»، ولا شيء في نظرها يضاهي جمال قناطر «الريالتو» البيضاء. أما «سوزان» فلم تذهب إلى «إيطاليا»، وبالتالي لا تستطيع المقارنة. التقطت عدة صور فوتوغرافية قبل أن تنتقل إلى الكاتدرائية، فحسدتها «هاربيت» على سذاجتها. تناولتا طعام الغداء في مقهى على الرصيف في شارع جانبي قرب النهر حيث الطاولات مظللة بالأشجار، ومع أن «هاربيت» كانت متعبة، أحست باسترخاء لم تعهده منذ أيام. أكلتا خبزًا مقمرًا ولحومًا باردة واحتستا الشراب المثلج على أنغام أوكورديون شجية تختلط بأحاديث الرواد، لم يكن أحد في عجلة لإخلاء الطاولات، وساعات الغداء انسابت بكسل. لاحقا، توقفتا لابتياع بعض الأشياء التذكارية من «بوليفار جامبيتا»، ثم عادتا إلى السيارة وبعدها إلى البيت. تأملت «سوزان» أطرافها النحيلة وهي تستقل السيارة وابتسمت قائلة:

– هل تذكرين عندما ذهبت إلى المتجر لتشتري الخبز؟ كنت واقفة في الخارج فغمزني أحد الشبان، ما رأيك بهذا؟ ضحكت «هاربيت» قائلة:

– قلت لك إنها فقط مسألة وقت. ثم سألتها «هاربيت» بجدية:

– أرجو ألا تكوني تجاوبت بطريقة ما؟ اعترفت «سوزان» بصدق:

– احمرت وجنتاي فحسب. فضحكت «هاربيت» وهي تدير محرك السيارة.

www.rewity.com مرور

أحستا بارتياح عندما عادتا إلى البيت. خرجت «هاريت» من السيارة وتمطت بنشوة بعد عناء القيادة. ترجلت «سوزان»، وبينما «هاريت» تجمع حاجاتهما من مؤخرة السيارة، أخذت «سوزان» المفاتيح وذهبت لتفتح الباب، ثم هتفت وهي تلتقط ظرفًا ملقى خلف الباب:

– لقد وصلتك رسالة. تقدمت «هاريت» عبر الممر رافعة حاجبيها بدهشة، فقالت «سوزان»:

– لا يوجد على المغلف طابع، ويوجد شيء ثقيل داخله. أحست «هاريت» بالتوتر يحيط بها ثانية فأخذت المغلف وفتحته. وجدت ورقة في داخله لكن ليس عليها أية كتابة. كانت الورقة تغلف مفتاحًا سقط منها عند فتحها فأحدث صوتًا. انحنت «سوزان» لتأخذ المفتاح، ونظرت إليه بدهشة ثم إلى خالتها وقالت:

– إنه المفتاح المرادف لمفتاحنا... والذي كان... بحوزة «الكونت». أومأت «هاريت»، ودخلت المطبخ. إنه يشبهه، وافقت بحدة، وتبعتها «سوزان» إلى الداخل دون أي تعليق. بعد يومين، وبينما «هاريت» في الطابق العلوي تقوم ترتيب السريرين سمعت أصواتًا، فاقتربت من النافذة للاستقصاء. لم تستقبلا ضيوفًا باستثناء «أندريه» وابنه، وتساءلت مع من كانت «سوزان» تتكلم. لم يدم انتظارها طويلاً إذ سمعت صوت «بول لاروش» الكسول، وضحكة «سوزان» المتوترة. فحررت «هاريت» أن الشاب كان يمارس جاذبيته على ابنة أختها السريعة التأثر. كانت «سوزان» بلا شك تتمتع بهذه الفرصة لتدرب أنوثتها اليانعة. وبالطبع وجدت في «بول» نموذجًا جذابًا لتجرب رمي شباكها عليه. «بول» نسخة طبق الأصل من أبيه لكنه أصغر سنًا وأقل خبرة. وعندما تذكرت «هاريت» ماذا فعل أبوه هرولت إلى أسفل الدرج. جفلت «سوزان» لدى ظهور خالتها. كانت تجلس إلى طاولة المطبخ كأنها تقلد إحدى الفتيات اللواتي يعرضن آخر ابتكار لتسمير البشرة. كانت تنظر

إليه نظرة جانبية وتبرز كل ما عندها، لكن منظر «بول» يوحي بأنه لا يرى شيئًا جديدًا. أحس «بول» بارتياح لرؤية «هاريت» وعندما لاحظت الإعجاب في عينيه تنبهت لما كانت ترتديه. وخاطبها «بول» بأدب:

– صباح الخير. إني سعيد لرؤيتك ثانية. انتصبت «سوزان»، وفي عينيها نظرة تحد بددت نشوتها. وقالت:

– طلب مني «بول» أن أذهب معه لنلعب التنس، هل تمانعين يا خالتي؟ على الرغم من تضايق «هاريت» من أن آل «لاروش» يظنون أنهم يستطيعون الذهاب والإياب بحرية، لم تستطع إخفاء طرافة الموقف، وكأن «سوزان» أرادت توضيح العلاقة بينهما. لم تستطع الموافقة على الطلب، فقطعت الغرفة لتملأ الإبريق متفادية نظرات الفتاة المذنبة نوعًا ما. سألتها:

– أين تنويان اللعب؟ وقبل أن تستطيع «سوزان» الإجابة، تدخل «بول» قائلاً وهو يعطي ظهره لـ «سوزان»:

– توجد ملاعب من الحشيش في القصر. لماذا لا تأتين أنت أيضًا؟ شعرت «هاريت» بجاذبية نحو الصبي لأنه يشبه والده كثيرًا، ونظرت بشرود إلى الإبريق الذي فاض بالماء وانسكب بعضه على الأرض. هتفت:

– اللعنة. ثم مدت يدها إلى قطعة قماش لكن «بول» كان أسرع منها فتناولها قبلها ومسح بها الأرض بسهولة وجدارة. وعندما لامست قطعة القماش أطراف أصابعها نظرت إلى أسفل وفي اللحظة نفسها كان ينظر إليها. انزعجت من تصرفه، ليس لأنه في السادسة عشرة فقط وهي تكبره بعشر سنين، وإنما لكونه استطاع أن يؤثر فيها. لم تعرف «هاريت» إذا كانت «سوزان» قد تنبهت لما حدث لكن الإبريق أحدث ضجيجًا عندما وضعته على فرن الغاز، ولفت نظر الفتاة التي عادت تسألها:

– حسنًا هل أستطيع الذهاب؟ عضت «هاريت» شفتها متحاشية النظر إلى «بول» ثم أومأت بعدم اكتراث وأجابت:

www.rewity.com

– لن أستطيع منعك. إذا كان هذا ما تريدين. تنهدت «سوزان» قائلة:

– يا إلهي! إنني أحتاج إلى رياضة. ونظرت إلى «بول» الجالس إلى الطاولة وقالت:

– أعطني دقيقة لأحضر المضرب. صعدت «سوزان» الدرج وحذاؤها يحدث صوتًا. أحست «هاربيت» بالارتباك حين وجدت نفسها وحيدة مع الصبي. ولتطرد هذا الارتباك، خرجت إلى الحديقة وأدارت وجهها لنسيم الصباح، ثم تنهدت عندما أدركت أن «بول» قد لحق بها ووقف خلفها.

– ما أجملك! قال هذا بصوت منخفض دون أن ينظر إليها كأنه يريد أن يوحي إليها بأنها تخيلت هذه الكلمات. إنما حين انتصب ونظر إليها تأكدت أنها لم تتخيل ما سمعت. أجابته بغضب:

– لا ينبغي أن تقول لي أشياء كهذه. ثم مسحت خدها المحمر وأردفت:

– أنا... لا أحب ذلك. أجابها:

– مستحيل! فردت عليه:

– أنا بالفعل لا أحب ذلك.

– أحقًا! لماذا؟ اقترب منها ولمس يدها، وسرعان ما ابتعدت عنه. هز كتفيه بلا مبالاة، وبرزت عضلات ذراعيه تحت قميصه القصير الكمين. كان تقريبًا يوازيها طولاً، وأيقنت كم هو كبير بالنسبة إلى الصبيان من سنه في «إنجلترا». وتمتم وهو يقضم عشبة ويقترب منها:

– أحب الطريقة التي تلفظين بها اسمي يا «هاربيت». ثم أضاف:

– لماذا لا تأتين معنا؟ أنت تعرفين أنني أتيت من أجلك! قررت «هاربيت» أن الموضوع تطور أكثر من اللازم. فإحساسها بتزلف الصبي وإعجابه شيء، وسماحها بأن يتمادى معها شيء آخر، مع العلم أنها منعت رجالاً في ضعف عمره من التصرف على هذا النحو معها.

– أعتقد أنك تغوص في مياه أعمق منك يا عزيزي. استعملت «هاربيت» لهجة

متعالية وارتاحت عندما لاحظت أن رمحها أصاب هدفه. وظهر ذلك جليًا على ملامحه. لكنها لم تر رد فعله لأن «سوزان» عادت في تلك اللحظة واضطر «بول» إلى أن يستدير إليها. قالت:

– أنا جاهزة. بدا صوت «سوزان» فتيًا وبريئًا فأدركت «هاربيت» هول الورطة التي ستزجها فيها. كيف يمكن لفتاة في عمر «سوزان» أن تدبر أمرها مع شاب مثل «بول»؟ هو، ورغم صغر سنه، صاحب خبرة؟ فضلت «هاربيت» ألا تتساءل عن مدى خبرته وقالت:

– الساعة الآن تناهز الحادية عشرة. فنظر إليها «بول» متأملا وتابعت «هاربيت»:

– لقد حان وقت الغداء. ألا تظنان أن الحرارة شديدة للعب التنس الآن؟

اكفهر وجه «سوزان» وقالت بحرد:

– قلت إن لا مانع لديك.

– تصحيح... قلت لا أستطيع أن أمنعك. أجابت الخالة بجفاف وقطعت مسافة الحشيش إلى الباب ثم استدارت وقالت لـ «بول» بتحدٍ:

– سألتنا من قبل إذا كنا نحتاج إلى مساعدتك. الآن فرصتك، إن الحشيش يحتاج إلى جزّ. صرخت «سوزان» لكن «بول» لم يسمعها لأنه كان يجيب «هاربيت»:

– إذا كنت تحتاجين إلى مساعدتي فكيف أرفض؟ تمنت «هاربيت» لو أنه أجابها بكلمات أكثر لباقة، وصرخت «سوزان» ثانية كأنها مجروحة، ثم استدارت ودخلت البيت. نظرت إليها «هاربيت» بقلق، وهي تتساءل: هل أخطأت بمنع الفتاة من الذهاب معه. ولكن حين نظرت إلى «بول» قررت أن ما فعلته هو عين الصواب. لكن إلى متى تستطيع إبعادهما عن بعضهما خصوصًا إذا آثر «بول» أن يستعمل «سوزان» كسلاح ضدها؟ سألها:

– ماذا أستعمل لجز الحشيش؟ نظرت إليه بضيق وهتفت بسخط:

www.rewity.com

– أنت لا تبالي بأحد، أليست هذه الحقيقة؟ أجابها بغضب:

– كلا. سأجز لك الحشيش، أليس كذلك؟

– لأن ذلك سيناسبك. هز رأسه قائلاً:

– كلا، هذا يناسبك أنت. والآن ماذا أستعمل؟ لسانك؟ كتمت ابتسامتها وردّت:

– هناك منجل في الكوخ وراء المنزل. لم تعطه وقتًا لكي يجيب، ولحقت بـ «سوزان» إلى الداخل. وجدت الفتاة مستلقية على السرير في حجرة النوم مجهشة بالبكاء. وقفت «هاربيت» مترددة على رأس الدرج، وهي تنظر إلى المشهد، ثم تنهدت وتقدمت نحو السرير.

– «سوزان»... لم يجبها أحد، فجلست على حافة الفراش.

– «سوزان». لكن «سوزان» هربت منها وقفزت إلى ناحية السرير الأخرى ثم استقرت مرتعشة أمام طاولة الزينة. صرخت «هاربيت» فجأة:

– «سوزان»، كفّي عن النظر إليّ هكذا. أنت تعلمين أني لست وحشًا. أنا... فعلت ما هو مناسب. أجابت «سوزان» بمرارة:

– مناسب لك. ظننت أنه صغير السن بالنسبة إليك. قالت «هاربيت» وكأنها لا تصدق ما تسمع:

– ماذا؟ إنه حقًا صغير بالنسبة إليّ، يا إلهي! لا تتصوري أنني أغار منك!

– أجل، أجل، لأنك كنت تريدين أن يدعوك أنت.

– هذا هراء! أنا لا أرغب في لعب التنس في حر النهار أما السباحة فربما. لكن ليس لعب التنس. أجابت «سوزان»:

– هذا ما تقولينه أنت.

– وإني أقصده. وقفت «هاربيت» وقالت بصوت منخفض كي لا يسمعهما «بول» من خلال النافذة المفتوحة:

– اسمعي يا «سوزان»، «بول لاروش» صغير جدًا بالنسبة إليّ، لكنه كبير بالنسبة إليك.

– كلا. قال لي إنه في السادسة عشرة من عمره، وأنا سأصبح في الخامسة عشرة في شهر كانون الأول (ديسمبر). نظرت «هاربيت» إلى السماء ثم قالت:

– العمر لا يقاس بعدد السنين، يجب أن تعلمي أن الخبرة هي المقياس. مسحت «سوزان» أنفها بيدها وأجابت:

– وأنت خبيرة في هذه الأمور كما أظن.

– أوه يا «سوزان»! نظرت إليها «هاربيت» ولا عون لها ولا قوة، لكن «سوزان» لم تكن على استعداد للاستسلام، ومضت تتهمها قائلة:

– أنت تحبين الاسترخاء طول النهار، وأنا صغيرة أريد أن أفعل شيئًا مختلفًا... ولأنك لم تتلقّ دعوة تتظاهرين...

– كنت مدعوة. قالت «هاربيت» هذا على الرغم منها. فنظرت «سوزان» إلى أعلى وأجابت:

– كلا.

– أجل. وتنهدت «هاربيت» وأكملت:

– لقد دعاني «بول» بعد صعودك إلى الغرفة. نظرت إليها «سوزان» بشك وقالت:

– لا أصدقك. هزت «هاربيت» كتفيها كأنها متعبة وقالت:

– اسأليه إذن. استوعبت «سوزان» النبأ في صمت لبرهة، ثم زمت شفتيها وبدأت تقول:

– ومع ذلك... فقاطعتها خالتها:

– ومع ذلك، لا شيء يا «سوزان». اسمعي، لا أرغب في منعك من اتخاذ أصدقاء. إذا جاء صبي أو فتاة في عمرك، سأكون أول من يشجع ذلك.

– لكن «بول» في عمري. هزت «هاربيت» رأسها وغمغمت:

www.rewity.com

– حسنًا. يبدو أنك لا تريدين الإصغاء إلى كلامي. واستدارت نحو الدرج، لكنها تذكرت هندامها، فذهبت إلى الخزانة وسحبت تنورة وقميصًا مناسبًا. نظرت إليها «سوزان» وهي ترتدي ملابسها دون أن تتكلم. ولما حاولت «هاربيت» للمرة الأخيرة أن تناشدها، استدارت واتكأت على حافة النافذة تنظر بتحدٍّ إلى الحديقة. أحست «هاربيت» أنها هزمت فنزلت الدرج ببطء. كان «بول» يلوّح بالمنجل في الحديقة الخلفية، وقد نزع قميصه وجلده الأسمر دل على أنه قلما يرتديه. لقد جزّ ما يقارب مترين مربعين. والعرق يتصبب من وجهه. وعلى الرغم منها، أثنت عليه «هاربيت» لأنه عمل بجدّ، وسارت نحو الباب ثم سألته:

– هل تريد أن تشرب شيئًا؟ انتصب «بول» وابتسم قائلاً:

– وهل لي أن أرفض؟ ابتسمت «هاربيت» ودخلت المطبخ. لم يكن عندهما ثلاجة ولكي تبرد الأشياء كانت تضع قناني العصير على الأرض في مكان لا تصل إليه الشمس. أخذت كوبًا كأنها تزنه ثم أعادته إلى مكانه إذ أحست أن «بول» يفضل الشرب من الزجاجة. اقترب منها حين عادت. فمدّت له الزجاجة وقالت:

– عندي عصير ليمون إن كنت تفضله. لكنه هز رأسه وأخذ الزجاجة ورفعها إلى شفتيه. ابتلع نصفها بجرعة واحدة، ثم مسح فمه بيده وامتدح برودة الشراب باللغة الفرنسية كما كان يفعل حين يكونان وحيدين. ثم سألها:

– لماذا غيّرت ثيابك؟ جسمك يسمح لك بارتداء ما تشائين. معظم الفتيات لايستطعن ذلك.

– تقصد اللواتي في عمري؟ فاحمرّ وجهه الناضح بالعرق وقال:

– لماذا تقولين أشياء كهذه؟ ولأول مرة لاحظت أنه جدّي فاستدارت ولوّحت بذراعها قائلة:

– إنك تعمل جيدًا، ألف شكر. رفع كتفيه وأكمل شرابه، ثم ألقى الزجاجة

الفارغة من يده وغمغم:

– تظنين أنني أمارس لعبة معينة، أليس كذلك؟ تنهدت «هاربيت» وقالت:

– أظنك تتغابى. هل يعلم والدك أنك هنا؟

– وهل هذا يهم؟

– أعتقد ذلك.

– لماذا؟ ألأنك تعتقدين أنه لا يوافق؟ وتوقف قليلاً ثم تابع:

– أم أنك لا تريدينه أن يغار؟ انحبس نفسها في حلقها وقالت بصعوبة:

– لا أعرف عمّ تتكلم.

– كلا؟ انتصب ثانية ونظر إليها قائلاً:

– إنك تعرفين أبي، أليس كذلك؟

– لديّ أعمال كثيرة تعوقني عن التبارز معك بالكلام. ثم استدارت ودخلت البيت. كانت تفرط البازلاء عندما ظهرت «سوزان». دخلت تجر رجليها وأبت أن تنظر إلى عيني خالتها. وسألتها بوقاحة:

– هل تمانعين إذا ذهبت وتكلمت إلى «بول»؟ فرفعت «هاربيت» رأسها وقالت:

– افعلي ما تشائين. فاندفعت الفتاة إلى الخارج دون أن تزيد كلمة واحدة. كانت الساعة تناهز الواحدة إلا ربعًا حين ظهر «بول» على باب المطبخ وشعره الطويل متدلٍّ على كتفيه بخصل رطبة وقال:

– الحشيش خلف البيت قد تم قصه. يلزمه الآن تنميق بالآلة، فهل عندك واحدة؟ هزت «هاربيت» رأسها، فقال:

– سأحضر غدًا لأقص عشب الحديقة الأمامية إذا أردت.

– أوه «بول»! تركت «هاربيت» عملها وقالت بنظرة مشفقة:

– لابد من أنك مرهق. ثم نظرت إلى الخلف وأكملت:

– هل أنت...؟ حسنًا، هل ترغب في البقاء لتناول طعام الغداء معنا؟ تضايقت

www.rewity.com

من نظرته المركزة لكنها حافظت على هدوئها. أجابها:

– من الأفضل أن أعود فـ «لويز» تتساءل حتمًا أين أنا. فرددت «هاربيت» في نفسها: «هذا الاسم ثانية».

– هل تريدين أن أعود غدًا؟

– من المحتمل ألا نكون هنا غدًا. كنا نفكر في الذهاب إلى «بيناك».

– «بيناك». أومأ مفكرًا ثم قال:

– حسنًا، لا يهم أن تكونا هنا. تململت «هاربيت» في جلستها وقالت بارتباك:

– أحس أنه يجب عليّ أن أدفع لك أتعابك... فغير الموضوع بقوله:

– قالت «سوزان» إنك تحبين السباحة. تعالي لنسبح معًا بعد غد.

– «بول»...

– بإمكان «سوزان» أيضًا أن تأتي معنا. نظرت إليه «هاربيت» بتعاسة وسألته:

– أين يمكن أن نسبح؟

– في النهر، أعرف مكانًا حيث الماء عميق والأشجار مظللة. فأجابت باستياء:

– ذهبت إلى هناك مرات عديدة على ما أظن؟ فابتسم «بول» وقال برجاء:

– قولي إنك ستأتين.

– سأفكر في الأمر. أخذ قميصه وارتداه.

– سأحضر بعد غد في حوالي الساعة الحادية عشرة. توقف ثم تابع:

– وغدًا أيضًا إن كنتما هنا أم لا. أمطرت في اليوم التالي. لم يكن شتاء ضعيفًا مثلما يتوقع في «إنجلترا»، إنما شتاء كثيفًا ومركزًا بدا كستار رمادي حول البيت، فغرقت الأشجار والعشب، ولم تعد فكرة السباحة واردة. انزعجت «هاربيت»؛ لأنها أملت أن ترطب هذه الرحلة الجو بينها وبين «سوزان»،

فالعلاقة بينهما كهدنة حرب. أمضت «سوزان» النهار مسترخية تقرأ. أما «هاربيت» فأخذت تقوم بتجارب في المطبخ حيث خبزت كعكًا جميل المظهر لذيذ الطعم. لكنها لم تكن تعمل من قلبها، إذ بدا لها أنها تتصرف كوالدة «سوزان» لا كخالتها. لحسن الحظ أشرق الطقس صباح اليوم التالي، وكانت «هاربيت» في رداء النوم حين سمعت الباب يقرع. نظرت من النافذة قبل أن تفتحه وإذا بها ترى «بول» واقفًا في الخارج. فتحت الباب وبادرته قائلة:

– بكرت في المجيء. أيّد كلامها مجيبًا ببساطة:

– أردت أن أنتهي من قص الحشيش باكرًا، نحن على موعد في الحادية عشرة. نظرت إليه باستسلام وقالت:

– حسنًا، لكن لا تتصور أن تصبح هذه عادة. سآتي معك هذه المرة إنما... تنهدت بإذعان وأضافت:

– أتعلم أين تجد المنجل؟ أخذ «بول» يشم الرائحة اللذيذة المنبعثة من المطبخ وسألها:

– ألا تقدمين لي فنجانًا من القهوة؟ لكنها هزت رأسها وأقفلت الباب في وجهه. هبطت «سوزان» الدرج وعيناها ترفان. لابد من أنها سمعت أصواتًا، واحتملت عناء ارتداء بنطلون جينز وقميص. نظرت حولها باستغراب عندما رأت خالتها لوحدها، فقالت «هاربيت»:

– «بول» هنا وسيقطع الحشائش في الحديقة الأمامية. سارت «سوزان» إلى النافذة ونظرت إلى الخارج.

– أين هو؟ أجابت «هاربيت» وهي تسكب فنجانًا من القهوة:

– أظنه يأتي بالمنجل. تريثت ثم قالت:

– هل تريدين أن تذهبي للسباحة في وقت لاحق؟ استدارت «سوزان» وسألتها:

– سباحة؟ أين؟ تناولت «هاربيت» فنجان القهوة ونظرت إليه لتتفادى النظر

www.rewity.com مـــر مـــور

إلى الفتاة وردّت:

– يقول «بول» إنه يعرف مكانًا دعانا إليه معًا. هتفت «سوزان» بتحدٍّ:

– أحقًّا؟ اضطرت «هاربيت» إلى مواجهتها وردّت بالإيجاب. فحدقت «سوزان» إليها وسألتها بتمرّد:

– وماذا لو قلت إنني لا أرغب في الذهاب؟ انقبضت أصابع «هاربيت» على الفنجان وهي تسأل:

– ألا ترغبين في السباحة؟

– كلا، كلا لا أريد. هبط قلب «هاربيت» وتأوهت بعتاب:

– أوه يا «سوزان»! فردّت الفتاة:

– ماذا ستفعلين الآن؟ هل ستذهبين دوني؟

– كفى يا «سوزان». لن أسمح بذلك.

– ماذا ستفعلين؟ لا تستطيعين إرغامي على الذهاب. بالإضافة إلى ذلك...

– بالإضافة إلى ماذا؟

– أنا لا أعرف السباحة. فشهقت «هاربيت» باستغراب وقالت:

– لا... تحسنين... السباحة؟

– كلا لم أحسنها قط.

– ألم يعلموك إياها في المدرسة؟

– حاولوا إنما دون جدوى. ربما أنا من هؤلاء الذين لا يستطيعون تعلّمها.

– هراء! كل إنسان يستطيع أن يسبح إذا حاول. وضعت «هاربيت» فنجان القهوة وعبرت الغرفة مضطربة ثم استدارت قائلة:

– «سوزان»، تعرفين أنني لا أريد الذهاب معه بمفردي. فهزت «سوزان» كتفيها بانزعاج وقالت:

– هذه ليست مشكلتي. تمالكت «هاربيت» أعصابها كي لا تصفعها، وفي الوقت نفسه أعجبت بها لأنها استغلت الموقف بنجاح. قررت «هاربيت» أن

لا جدوى من مناشدتها لتغير رأيها. فغسلت وجهها وأسنانها فوق المجلى، ثم ركضت إلى فوق لترتدي ثيابها. كان عليها أن تجد حلا للخروج من هذا المأزق إنما لم تعرف في هذه اللحظة كيف يجب أن تتصرف.

- 6 -

لما عادت «هاربيت» إلى الطابق السفلي وجدت الباب مفتوحًا و «سوزان» قد اختفت، فظنت أنها ذهبت لتتحدث إلى «بول». شربت قهوتها الباردة ووضعت الفنجان في المغسلة. نظرت إلى ساعتها، إنها التاسعة، لديها ساعتان لتجد عذرًا لعدم مرافقته. كان الصباح جميلاً للبقاء في الداخل، فخرجت وهي تأخذ نفسًا عميقًا، وتتلذذ برائحة زهور الميموزا النامية بوفرة تحت النوافذ. رأت «بول» على مبعدة يطوّح المنجل بانتظام وهو يقطع الأشواك المتشابكة والأعشاب المرتفعة تحت السياج، إنما لم تر أثرًا لـ «سوزان». وكالمعتاد انتصب «بول» واقفًا لدى رؤيتها وقال:

– ساعة أخرى وأنتهي من المهمة. أومأت «هاربيت» وهي تتطلع حولها قلقة وسألته:

– هل رأيت «سوزان»؟

– أجل. طلبت مني أن أبلغك أنها ذهبت للتنزه. أحست «هاربيت» برعشة وفقدان صبر. هكذا إذن؟ حسنًا، ستعرف كيف تجاريها في هذه اللعبة. رأت «بول» يتابع النظر إليها، فاندفعت تقول:

– هل تريد بعض العصير الآن؟ صوّب المنجل إلى الأرض المكسوة بالعشب فسقط من يده على التراب وبرز كأنه علامة استفهام كبيرة. ثم مسح الشاب يديه ببنطلونه وعبر فسحة الحشيش باتجاهها. تراجعت «هاربيت» نحو البيت وقد ندمت على دعوتها له. دخل وهو يزيح شعره المبلّل عن جبينه،

www.rewity.com
مـــرمـــورية

فتناولت علبة من الزاوية. ولما وجدت أنها تحتوي على عصير ليمون تناولتها لكنها سقطت من يدها. فشتمت بصوت منخفض وهي تلتقطها ثانية. راح «بول» ينظر إلى هذا المشهد باهتمام. واقترب منها وهي تهمّ بفتح العلبة. قائلاً:

– دعيني أقوم بذلك. لكنها رفضت طلبه وشدت بعنف على حلقة العلبة فانفلتت من يدها واندفع رذاذ العصير الذي بداخلها على صدر «بول». فشهق واضعًا يديه على صدره، وزال التوتر حين انفجرت ضاحكة، وظلت تضحك حتى دمعت عيناها، فخطف «بول» العلبة من يدها وتقدم يهدد بصبّ ما تبقى فيها فوق رأسها. أخذت تتراجع وهي ما زالت تضحك ثم أحست أن شيئًا ما يحجب النور عن الباب. التفتت إلى الباب وهي تحس بالانقباض المعهود الذي ينتابها كلما رأت «أندريه». التغير في ملامح وجهها أنبأ «بول»، فنظر حوله، وصاح صيحة تعجب وتوقف عن اللعب واضعًا العلبة على الطاولة واستدار ليواجه أباه. انتصب «أندريه» من اتكائه على حاجب الباب، وتساءلت «هاريت» منذ متى وهو يراقبهما. ثم دخل الغرفة وتعجبت حين رأت «سوزان» خلفه. قال يسأل ابنه:

– ماذا تفعل هنا يا «بول»؟ تكلم باللغة الإنجليزية لتفهمه «سوزان».

وأردف:

– فهمت من «لويز» أنك تقوم بعمل مؤقت.

– أجل. وضع «بول» أصابعه داخل حزام بنطلونه، وشعرت «هاريت» بلهجته العدائية، فتدخلت قائلة:

– ابنك كان في غاية اللطف إذ قصّ العشب في الحديقة الأمامية والخلفية.

قطب «أندريه» حاجبيه قائلاً:

– هكذا إذن. اتخذ الشاب موقفًا مهاجمًا، ونظره يرفّ بغضب في اتجاه الفتاة الواقفة خلف والده وسأله قائلاً:

– هل أخبرك أحدهم بعكس ذلك؟ ارتجف فم «سوزان» لكنها لم تقل شيئًا. وفهمت «هاريت» بخوف أن «بول» قد أصاب الحقيقة. فقالت للفتاة بخيبة:

– أوه يا «سوزان» لا يعقل أن تفعلي ذلك! لكنها فهمت من وجه «سوزان» المحمر أنها المذنبة. كبح «أندريه» جماح غضبه وقال بهدوء:

– أنت ابنة أختك لتقول لي إن ابني هنا. وتساءلت «هاريت» كم اختصر من نعيمة «سوزان»! وتابع «أندريه» قائلاً لابنه:

– «بول»، جدتك تنتظرك لتصطحبها في نزهة. ربما الآنسة «إنغرام» تسمح لك بإنهاء قص العشب في يوم آخر. ارتبكت «هاريت» وقالت:

– لم أعرف هذا. كان عليك يا «بول» أن تخبرني. فسألها «بول» بغضب:

–وهل تصدقين هذا الزعم؟ لكن والده وضع يده على كتفه فحاول «بول» نزعها متمتمًا:

– حسنًا، حسنًا، أنا ذاهب. غمز «بول» «هاريت» ثم نظر إلى «سوزان» نظرة قاتلة، وخرج من المطبخ وخطف قميصه وهو يمر إلى الدرب. لاحقته «سوزان» بنظرها وشفتاها ترتجفان. لكن «هاريت» لم تشعر بالشفقة نحوها، فهي ذهبت إلى القصر وأحضرت «أندريه» لتمنعها من الذهاب للسباحة، وفي هذا التصرف نوع من الحقد. قالت لها:

– من الأفضل يا «سوزان» أن تصعدي إلى غرفتك. وركضت «سوزان» وهي تشهق وأغلقت الباب خلفها بعنف. بقيت «هاريت» وحدها مع «أندريه» ونظرت إليه بعدم ارتياح متسائلة لماذا بقي، وهل كان يتوقع منها اعتذارًا ما... كان يرتدي بنطلونًا يشبه بنطلون ابنه إنما بدل القميص.. يلبس صدرية دون كمين تظهر عضلاته القوية. كان يقوم ببعض الأعمال. والبقع على وجهه ويديه تدل على ذلك. لم يقم بأية حركة تنبئ بأنه ينوي الذهاب. أخذت «هاريت» نفسًا عميقًا ثم قالت:

www.rewity.com

– أعتذر إن كان «بول» يهمل عائلته. هل أنت... ولم تكمل إذ انفجر «أندريه» يهتف حانقًا:

– ماذا تحاولين أن تفعلي بي يا «هاربيت»؟ لقد أتيت هنا وسكنت في بيتي. هل تتوقعين مني أن أتجاهل وجودك كما لو كنت غريبة؟ هل تظنين أنني مصنوع من الخشب؟ هجومه كان غير متوقع، ولم تكن «هاربيت» مستعدة له. فاحتجّت قائلة:

– أنا ما دعوتك إلى المجيء هنا. لكن «أندريه» لم يستمع لكلامها. كانت عيناه تلتهمانها وتشعلان الاحمرار في وجنتيها وتهزان كيانها. وحين خفض نظره استدارت فجأة لأنها لم تحتمل تأثيره فيها. وقالت بصوت خافت:

– من الأفضل أن تذهب.

– لماذا؟ أحسته يقترب منها ويقف وراءها، وتابع يقول:

– إن كنت ترحبين بابني هنا فلماذا لا ترحبين بي؟

– كلا... مات احتجاجها المفاجئ حين لمسها. الحائط كان خلفها ولما حاولت الابتعاد عنه، التصقت بالطلاء الجديد. أحست بالبرودة تسري في جسمها الحار العارق من الخوف. وفجأة استعادت رشدها حين سمعت صوت خطى «سوزان» تجوب الطابق العلوي. وتساءلت برعب، ألم تتعذب بما فيه الكفاية على يد هذا الرجل؟ هل فقدت رشدها لتسمح له بأن يقترب منها إلى هذا الحد؟ ثم إن «سوزان» قد تهبط إلى المطبخ في أي لحظة... قالت بصوت خافت:

– كلا، كلا. أضافت وهي تحاول إخفاء الرجفة في صوتها، وقد أدركت مبلغ سيطرته عليها:

– أرجوك، أريدك أن تذهب الآن. فأجابها بنظرة ساخرة:

– لماذا؟ لقد فات الوقت ولا يمكنك التظاهر الآن بأنك لا تبادليني الرغبة نفسها.

– اخرج من هنا. لم يتحرك ليخرج إنما انتصب قليلاً وفرك شعر صدره الأجعد الداكن وقال:

– فاصل شائق، مع أنه غير مرضٍ. ماذا كنت تنتظرين مني يا «هاربيت»، أخبريني؟ كان يجب أن تعرفي منذ البداية أني لست مهذبًا... أليس كذلك؟

– نعم. نعم، كان عليّ أن أعلم. وأكملت بمرارة:

– أوه يا «أندريه»! أرجوك أن تذهب.

– أهكذا تعزّين نفسك لأنك لم تضعفي هذه المرة؟ تقدم نحوها فتراجعت إلى الوراء خائفة، قال:

– استرخي يا «هاربيت»، لقد تلقّيت الدرس الكافي لهذا اليوم. لا تقولي أبدًا إن أحدًا من آل «لاروش» لا يعرف متى يجب أن يستسلم، لكن لا تتصوري أنه بإمكانك أن تلعبي هذه الألاعيب معي. لقد أفلتّ هذه المرة فقط لأنني سمحت لك بذلك. ابتلعت ريقها بصعوبة وقالت:

– أنا... أنا لا أفهم كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه الطريقة! أنا... وبللت شفتيها الناشفتين:

– لا أريد رؤيتك بعد الآن، هل تفهم؟ عيناه اسودتا غضبًا وأجاب:

– أنت حمقاء يا «هاربيت». لم يقل كلمة ثانية ثم استدار وغادر البيت. بعد ذهابه تحركت «هاربيت» على ساقين بدتا عاجزتين عن حملها. لم تواجه موقفًا كهذا أبدًا، وحاولت نسيانه فلم تستطع. هل جلبت كل هذا لنفسها؟ هل أشعل تصرّفها الأحاسيس القديمة التي كانت بينهما؟ حركة على الدرج أعادت إليها رشدها فرأت «سوزان» تتربص خلف الباب المشقوق. طغى الغضب على أحاسيسها لأن الفتاة كانت مسؤولة عما حدث. لكن هل تستطيع أن تلوم «سوزان»؟ كيف تلوم أحدًا سوى نفسها؟ وقالت بعصبية:

– ادخلي، هيا، ادخلي. فدخلت «سوزان» المطبخ وعيناها الحمراوان

www.rewity.com

تشهدان على التعاسة التي تشعر بها. قالت بصوت متهدج وهي تحاول الكلام بوضوح:

– «هاريت»، أنا... أعتذر. تساءلت «هاريت» عما تعتذر، هل لأنها جاءت بـ «أندريه» إلى هنا؟ أم تعتذر عن الحادثة التي جرت عند قدومه؟ حاولت أن تتصرف بشكل طبيعي، رفعت يديها لتلمس شعرها الحريري وقالت بسرعة:

– يجب أن تكوني نادمة، لكن ما حدث قد حدث، واسترحت على الأقل من مشوار السباحة. تلكأت «سوزان» عند باب الدرج وسألت:

– هل أردت الذهاب فعلاً؟ تنهدت «هاريت» قائلة:

– أظن يا «سوزان» أننا انتهينا من هذا الموضوع، ومن الأفضل أن نقوم بأعمال الحديقة. أليس كذلك؟ أخذت «هاريت» تضرب بالمنجل. وأفادها هذا العلاج، بينما راحت «سوزان» تجمع العشب وتكوّمه في مؤخرة الحديقة. ثم أرهقهما العمل فتوقفتا من شدة الحر وراحتا تستحمان في الجدول وتستمتعان بالماء البارد العذب ينساب على جسميهما. كان صباحًا طويلاً وستعقبه نهاية نهار أطول. وعند المساء، بينما هما تستعدان للنوم، قالت «سوزان»:

– هناك كدمة على ذراعك. فارتدت «هاريت» قميصها بسرعة لأنها تعلم بوجود رضوض عديدة على جسمها ولم تشأ أن توضح لـ «سوزان» سببها. كان ممكنًا في الأيام المقبلة أن توهم نفسها بأن الأسوأ قد ولّى بعدما حصلت المواجهة التي توقعتها منذ اللحظة الأولى التي شاهدت فيها «أندريه». وصار عليها الآن أن تتابع حياتها وتتناسى كل من يمت بصلة إلى عائلة «لاروش». لكن في أوقات الفراغ كانت هذه الأفكار تعاودها ولم تستطع كبتها. وأصبح النوم مهمّة أكثر منه ضرورة. أبدت «سوزان» استعدادًا لتخفف عنها. كان واضحًا أنها نادمة على ما فعلت، ومع أنها لم تدرك أنها هيّجت الأفعى في وكرها أحست أن الواقعة التي حركتها قد أحدثت مضاعفات لم تدرك

عواقبها. وتساءلت «هاريت» أكثر من مرة، هل علمت «سوزان» ماذا كان يجري في الطابق السفلي، أم تصورت أنهما كانا يتشاجران؟ تمنّت بمرارة لو أنهما تشاجرتا طوال الوقت كي يسهل عليها النسيان. لقد أتيتا إلى الـ«دوردون» لتشاهدا المنطقة وصمّمت «هاريت» على أن تفعلا ذلك فزارتا قصر «روكامادور» الذي يقف برشاقة فوق وادي «الألزو» وقصر «سارلات» بجدرانه الصفراء وقرميده الأبيض، وزارتا «بريجو»، عاصمة «البريجور»، وكاتدرائيتها ذات القباب وأبنيتها القديمة الجميلة. وأخيرًا «برجواك» حيث قامتا بزيارة إلى «كروم العنب». أجمل نزهة تذكرها «هاريت»، كانت إلى كهف «بشميرل»، حيث دهاليز الكهف تهبط إلى أكثر من ثلاثة كيلومترات نحو الوادي السحيق وتتحول إلى غرف. كانت حلم علماء الكهوف؛ لأنها تحتوي على رسوم لحيوانات كانت تجوب الأرض منذ أربعين ألف سنة. شاهدتا كذلك آثار أقدام متجمدة لإنسان ما قبل التاريخ، محفوظة إلى الأبد في طين كربوني مترسّب. وحين خرجت «هاريت» من المغارة، غمرتها نشوة وإحساس بخلود الإنسان. لو استطاع المرء أن يطبق الدروس على حياته الخاصة لأدرك سخافة مشاكل الإنسان بالمقارنة مع هذا المقياس التاريخي الطويل. بعد انقضاء أسبوع على اللقاء الرهيب مع «أندريه» ذهبت «هاريت» لتشتري بعض الأغراض من «روشلاك» فأوشكت أن تصطدم بـ«بول». كانت خارجة من دكان الحلويات والشمس في وجهها، فأخذت تبحث عن نظارتها عندما ظهرت قامة طويلة أمامها. بدأت تعتذر لكنه بادرها قائلاً:

– مرحبًا يا «هاريت».

– «بول»! دفعت بنظارتها على أنفها، ونظرت إليه بدهشة وقد أحست بعدم الارتياح وقالت:

– إنها لمفاجأة!

– حقًا؟ نظر حوله ثم سألها:

– هل أنت وحدك؟ نقلت سلّتها إلى ذراعها الأخرى وأجابته:

– أجل، «سوزان» تأخذ حمام شمس فالطقس في غاية الجمال.

– أجل. أدخل إبهامه في جيب بنطلونه الخلفي وبدا مكتفيًا بأن يقف معها وينظر إليها بينما يشاهده نصف سكان «روشلاك» الحائمون حولهما باهتمام. وفكرت «هاربيت» في انزعاج، هؤلاء الناس يعرفون من هو... ثم أرغمت نفسها على الابتسام قائلة:

– حسنًا، سررت لمشاهدتك ثانية يا «بول»...

– هيا، تعالي نتناول كوبًا من العصير أو فنجانًا من القهوة إن كنت تفضلين.

هزت رأسها قائلة:

– كلا لا أظن...

– لم لا؟ تذكري أنك مدينة لي بشيء. تحركت «هاربيت» بضيق وقالت:

– «بول»، أنت تعلم أنها فكرة غير لائقة.

– أبسبب والدي؟ أنا أعلم لأنه أخبرني. انذهلت «هاربيت» وقالت:

– ماذا أخبرك؟

– أخبرني بأنكما تعرفان بعضكما منذ سنين عديدة، وأنك لا تحبينه.

– يا إلهي! أحست «هاربيت» بالضعف. أهذا ما قاله «أندريه» لابنه؟ أهذا ما قاله لزوجته؟

– إذن. بدأت بالكلام لكن «بول» قاطعها ثانية:

– والدي ليس هنا، ولا موجب لأن يعلم وإن علم... وبسط يديه دلالة على اللامبالاة. ترددت «هاربيت» وقالت:

– «بول»، إنني متأكدة أن هناك فتاة أخرى تتوق لكي تدعوها... فأجاب بحنق:

– كـ «سوزان» مثلاً؟ تنهدت وردّت:

– حسنًا، حسنًا، سأتناول فنجانًا من القهوة معك. اختفى التوتر من صوته،

وسار معها إلى حيث مقهى السيد «ماكون» الذي بادرها قائلاً:

– كيف حالك؟ لم تستطع «هاربيت» إخفاء ابتسامة أسى وقالت بجفاف:

– أستطيع القول إنني لست بحال أحسن لأنني رأيتك. وعندما أحست أنها جرحت شعوره صححت ما قالته:

– كلا. أنا على ما يرام. كيف حالك أنت؟ كانت الطاولات منتشرة تحت الشمس، فاختار «بول» إحداها، وطلب من إحدى المضيفات أن تأتيهما بقهوة فنظرت إلى «هاربيت» بإعجاب قبل أن تذهب. وسألته «هاربيت» بمكر وهي تسند مرفقيها إلى الطاولة:

– هل تعرفها؟ نظر إليها بارتباك ثم أجاب وهو يجعد أنفه باحتقار:

– «ليز»؟ إنها فارغة الرأس... أما أنت... قاطعته «هاربيت» قائلة:

– انسني الآن، هل اصطحبت جدتك الكبيرة في نزهة؟ أجاب بحنان:

– «لويز»؟ أجل أخذتها. لم تستطع «هاربيت» منع نفسها من سؤاله:

– «لويز»؟ أهذا اسم جدتك؟ أومأ «بول» وأضاف:

– «لويز ماري تيريز لاروش». إنها جدة والدي.

– فهمت.

– هل ترغبين في لقائها؟

– كلا. وهزت رأسها بسرعة. كان هذا آخر شيء تريده، وتابعت متلعثمة:

– أقصد... لم أحلم بـ... بـ...

– ... أن تزوري بيت أبي. تنهدت «هاربيت»:

– شيء كهذا. حسنًا، لقد جاءت القهوة. يا لرائحتها الزكية! قدوم المضيفة منحها فترة استراحة من أسئلة «بول» الثاقبة. وافتعلت «هاربيت» اهتمامًا بالغًا بفنجان القهوة، لكنه عاد إلى الحديث فجأة:

– قال والدي إنك تعيشين في «لندن». فاضطرت إلى أن تنظر إليه وقالت:

– حقًا؟ نعم إنني أقيم هناك. وضع «بول» يديه على الطاولة وتابع:

www.rewity.com

– أظن أنك تصادفين أشخاصًا شائقين في مجال عملك؟

– بعضهم. أحست أنها أصبحت على أرض متينة وسألته:

– هل تهتم بالتحف القديمة؟ هز «بول» رأسه قائلاً:

– كلا، لكنني أحب العيش في «لندن». نظرت ثانية إلى فنجان القهوة وقالت بحزم:

– ثق بأنك لن تحب ذلك.

– كيف يمكنك التكهن بهذا؟ إن «لندن» هي المكان الذي يجب أن يذهب إليه كل شخص يسعى إلى الشهرة.

– الناس المجهولون في «لندن» أكثر بكثير من المشاهير.

– ربما ليس لديهم طموح.

– وأنت؟ فأومأ بحرارة وقال:

– بالطبع أنا طموح. سألته «هاربيت» عابسة:

– وماذا ستفعل في «لندن»؟

– سأجد عملاً. سأعزف على الجيتار.

– فهمت. أنت تعزف على الجيتار، إذن دعني أقول لك يا «بول» إنه يوجد مئات من الشبان مثلك في «لندن»...

– هذا ما يقوله لي والدي، لكنه لا يعلم أنني أجيد العزف عليه. أعرف أنني جيد. ليتني أستطيع الذهاب إلى «لندن»، وأحظى بعمل في فرقة موسيقية...

– لماذا لا تفعل ذلك في «باريس»؟

– لأنني أريد الذهاب إلى «لندن». انتهت «هاربيت» من احتساء القهوة وقالت:

– يجب أن أنصرف الآن. أخذت حقيبتها من السلّة، لكنه تدخل عندما رآها تفعل ذلك وقال:

– أنا سأسدد الحساب. فلم تعترض «هاربيت». كانت الساحة الصغيرة مزدحمة أكثر من المعتاد. وأوضحت أنها تركت السيارة في خارج القرية.

– أشكرك يا «بول» على ضيافتك. إلا أنه لم يستأذن بالانصراف وقال بإصرار:

– سأتمشى معك. واضطرت إلى القبول. كانت الشمس حارة جدًا وما لبثت ثيابها أن التصقت بجسمها. لكنها لم تتمهل في السير إذ أرادت أن تفهم الشاب أنها لا تنوي أن تتأخر. تساءلت عن ردة فعل «تشارلز» لو رآها الآن وهي تمشي في «روشلاك» مع ابن «أندريه». وحالما وصلت السيارة فتحت الباب وألقت بالسلة على المقعد الخلفي. وقف «بول» ينظر ويده في جيبه. ابتسمت «هاربيت» وهي تفتح الباب الأمامي وقالت:

– حسنًا... الآن أستودعك الله. أدار «بول» وجهه للشمس قائلاً:

– الحر شديد للغاية.

– أجل.

– والدي يعمل، لماذا لا تأتين إلى البيت للقاء «لويز»؟ انقبض قلب «هاربيت» وردّت:

– لا أستطيع ذلك.

– لن تري أبي، أعدك بذلك، إنهم يقطفون الثمار وسوف يغيب طول النهار. فقالت وقد وجدت مبررًا للخلاص منه:

– ولماذا لا تعاونه؟ قطب الشاب وردّ بامتعاض:

– هذا يوم راحتي، والعمل في الحقول يؤذي يديّ. صعدت إلى السيارة بتصميم وقالت:

– آسفة يا «بول» إنما يجب أن أعود خشية أن تقلق «سوزان». أغلقت الباب وراءها، وأنزلت الزجاج على الرغم من جو السيارة الخانق وقالت:

– إلى اللقاء. ابتعد «بول» قليلاً ورفع يده لتحيتها، فانطلقت بشعور من

www.rewity.com مـرمـوريـة

الهرب لكنها شاهدت وجه الصبي الحائر في المرآة، فخالجها إحساس مزعج بأن هذه لن تكون المرة الأخيرة التي ستراه فيها. غمرتها الحيرة وهي تقود السيارة وفكرت في الشاب. لم يذكر والدته، ولا إمكانية وجود إخوة أو أخوات. جدته الكبرى هي الشخص الوحيد الذي ذكره عدا والده ولابد من أنها في سن متقدمة جدًا، في الثمانين على الأقل، وتبدو كأنها ذات أهمية في العائلة. بالطبع، العائلات الفرنسية تختلف عن العائلات الإنجليزية، فهنا يُنظر إلى المسنّين باحترام ووقار، وتُطلب آراؤهم وتُعتبر قيّمة. للخبرة معنى هنا، ربما لذلك أحب «بول» جدته الكبرى واحترمها، لكن ماذا عن والدته؟ وهل لـ «أندريه» امرأة أخرى؟ ففي هذه البلاد من الطبيعي أيضًا أن تكون للرجل امرأة أخرى. وهنا انتقدت «هاربيت» نفسها بألم واضطرت إلى الاعتراف بأنها فضوليّة. لم تجد أثرًا لـ «سوزان» عندما قادت سيارتها إلى درب البيت وأحست برعشة خوف. لقد تغيبت أكثر من ساعة وبالتأكيد لم يحصل شيء في أثناء غيابها... كان من عادة «سوزان» أن تخرج لملاقاتها ولم تفعل هذه المرة. أوقفت السيارة، وخرجت مسرعة دون أن تأخذ السلة من المقعد الخلفي، ومشت بسرعة على الممر ودخلت البيت وهي تنادي:

– «سوزان»... «سوزان». أين أنت؟ لقد شاهدت بقعًا مخيفة على أرض المطبخ وتخيلت أنها من الدم ثم سمعت أنينًا صادرًا من الصالون. ذهبت لتستخبر الأمر وساقاها ترتجفان. توقفت عند باب البهو الصغير وشهقت بخوف. كانت «سوزان» مستلقية على الأريكة شاحبة الوجه والدم ينزّ من ربطة تحت ركبتها. صرخت «هاربيت»:

– «سوزان»! وشعرت بغثيان من منظر الدم.

– يا إلهي! أحست بخور في ساقيها فاتكأت على حاجب الباب. وللحظات قصيرة شعرت بأن الغرفة تدور حولها من تأثير الصدمة والحر الشديد. وهتفت «سوزان» منتحبة:

– «هاربيت»... كم أنا سعيدة لأنك عدت... كنت خائفة جدًا. فاندفعت نحو «سوزان» لتقدم إليها العون بقدر المستطاع وعيناها تنظران إلى الجرح لترى مدى خطورته. كيف حصل هذا؟ من البديهي أن «سوزان» جرحت رجلها لكن أين؟ وبماذا؟ وبدا أن «سوزان» لن تتوقف عن البكاء أبدًا، فهتفت خالتها أخيرًا:

– حبيبتي، هيا، أخبريني ماذا جرى؟ شهقت الفتاة فناولتها «هاربيت» منديلا وأيقنت أنه من اللازم الإسراع باتخاذ إجراء ما لأنها كانت تنزف كثيرًا. وقالت «سوزان» بفزع:

– إنه المنجل... كنت أحاول قطع ما تبقى من العشب... الحشيش الذي لم يكمل «بول» قصّه. أحست «هاربيت» بموجة من الهلع تسيطر عليها وصرخت:

– المنجل! إن أي حادث يمكن أن يكون خطيرًا وهما على بعد كيلومترات من أي مستشفى، وهي لا تعلم إن كان هنا بالجوار طبيب. يجب أن تتصرف بسرعة لكن كيف؟ قالت لنفسها، أسرعي في التفكير، وتصرفي بهدوء. لاتدعي «سوزان» ترى أنك تفقدين رباطة جأشك. ركعت على الأرض وهي تبتسم لـ«سوزان» مشجعة، ثم نزعت الرباط برفق لتكشف الجرح، ووجدته أسوأ مما تصورت، إذ يبلغ طوله بضع سنتيمترات ويلزمه تقطيب، ولم تستبعد خطر الالتهاب لأن المنجل ملوث.

– يجب أن أضع عصابة حول ساقك لإيقاف النزيف. قالت هذا بصوت عادي، ثم أضافت:

– يجب أن نذهب إلى الطبيب. كانت تحاول أن تظهر براعة فيما تفعل وتوحي بالاطمئنان للفتاة. لم تكن تخاف من منظر الدم، لكنها لم تر في حياتها جرحًا كبيرًا ونزيفًا شديدًا كهذا، ولم تكن لديها خبرة بمثل هذه الأمور. ليس في البيت صندوق إسعافات، وكل ما لديها بضع حبات من

الأسبيرين ولا شيء آخر يساعد على تخفيف آلام «سوزان». كانت «سوزان» تثق بما تفعله خالتها وهي تتكلم بلطف إنما بقلة معرفة بالعصابة الضاغطة التي تقطع النزيف. تذكرت أنها قرأت في مكان ما أن قطع الدم ممكن لكن لوقت محدد وإلا أصيب العضو بالغرغرينا. ارتعشت لهذه الفكرة المرعبة. إذا خسرت «سوزان» ساقها من جراء ذلك فسوف تلوم نفسها إلى الأبد. لقد عصبت ساقها بجورب من النايلون وشدته حتى انقطع النزيف. لكن وجه «سوزان» كان شاحبًا جدًا. قالت الفتاة بارتعاد:

– آسفة لأنني لطخت الأريكة. لكن «هاريت» طمأنتها قائلة:

– لا تهتمي بالمقعد. يجب أن أحملك الآن إلى السيارة.

– إلى أين سنذهب؟

– لنجد طبيبًا. لكن الفكرة مشكوك فيها ومع ذلك يجب أن يكون هناك طبيب في «روشلاك». وعلى الرغم من نحولها كانت «سوزان» ثقيلة الوزن على «هاريت» وبعد عدة محاولات فاشلة ومؤلمة قالت «سوزان» بشيء من الواقعية:

– يجب أن أمشي. لكن حين حاولت النهوض فقدت وعيها تقريبًا فقالت لها خالتها:

– ابقي حيث أنت. تطلعت إليها «سوزان» بلهفة فتنفست بعمق وأردفت:

– سأذهب... لآتي بشخص يساعدنا. استلقت الفتاة على الوسائد وسألتها:

– بمن ستأتين؟ فردت بصوت فاتر وقد غلبت على أمرها:

– سآتي بـ «بول».

- 7 -

كان المشوار إلى القصر كالكابوس. لم تذهب إليه من البيت من قبل فعلقت

في الشوك والنباتات الزاحفة واضطرت إلى تغيير طريقها وسلوك الطريق المحاذي للغدير. ربما كان الأمر سهلاً لو لم تكن يائسة. لكن السير استغرق وقتًا طويلاً. ومعرفتها الضئيلة بجغرافية المكان لا تتيح لها إضاعة مزيد من الوقت. لمّا وصلت الجسر الذي يمر فوق الجدول تحسن الدرب. كانت تحس بالحرّ وتتصبب عرقًا. ويداها متسختان ومخدوشتان من مصارعة الأشواك. أزاحت شعرها إلى الوراء واستمرت في السير مع أنها تاقت إلى تغطيس وجهها في الماء البارد. بعد تسلّق آخر وصلت إلى الهضبة الموازية لأسوار القصر. استجمعت قواها، وسلكت الدرب الممتد إلى الجهة الأمامية من البناء. هل تجد «بول» في البيت؟ لقد تركته منذ ساعة تقريبًا في «روشلاك»، فهل عاد إلى البيت. وإذا لم يفعل، بمن ستستنجد؟ بوابات القصر الكبيرة تبدو كحارس فخور بآثاره. من المستحيل ألا يتأمل المرء الجدران المكلّلة بالشرفة الرائعة. كانت تقصد البيت ذا الجدار الخلفي الملتصق بحصن القصر. وخارت قواها عندما رأت الباب المقوّى بالقطع الحديدية والجرس المتدلي بقربه. ماذا عساها تقول؟ كيف تعرّف نفسها؟ طلبت من الله أن يكون «بول» هناك. دقت الجرس الذي رنّ بحزن بين جدران البناء الحجري. ووقفت تنتظر حتى يأتي أحد ويفتح الباب. لكن الصمت دام طويلاً بعد أن سكن طنين الجرس. فدقته ثانية وقد فقدت ما بقي عندها من صبر لتعود لـ «سوزان». ولما استمر الصمت كادت تقفل راجعة والدموع تملأ عينيها. فسمعت صوت مفتاح في الباب فاستدارت وحلقها جاف ومطبق. بينما البوابة الكبيرة تتأرجح إلى الداخل. ظهرت سيدة عجوز تتكئ على عصا من الفضة. وسألتها باللغة الفرنسية:

– نعم؟ استجمعت «هاريت» هدوءها بصعوبة. لا بد من أنها «لويز»، ورأت أنها لا تبدو عجوزًا كما توقعت.

– أنا... بدأت كلامها باللغة الإنجليزية ثم انتقلت إلى اللغة الفرنسية:

– إنني آسفة لإزعاجك يا سيدتي. لكنني أريد التكلم مع حفيدك «بول».

www.rewity.com

عبست السيدة العجوز، وحدقت إليها بعينين رماديتين تشبهان عيني «أندريه».

– لماذا تريدين محادثة حفيدي يا آنسة؟ فصرخت «هاريت» بيأس:

– أوه، أرجوك، أهو هنا؟ وتابعت موضحة:

– حدث لابنة أختي حادث، جرحت ساقها ويجب أن أصطحبها إلى الطبيب. لكنني لا أستطيع حملها من دون عون. هزت العجوز رأسها ببطء وقالت:

– آه، لابد من أنك الآنسة «إنغرام» أليس كذلك؟ وأنت التي اشتريت المزرعة القديمة.

– أجل، أجل. لم يكن لديها وقت لتتبادل المجاملات. وأردفت:

– هل «بول» هنا؟

– كلا ليس هنا.غرقت آمال «هاريت» عند سماع كلماتها، وقالت العجوز:

– إنه في «روشلاك» يا آنسة.

– هل يوجد أحد بإمكانه مساعدتي؟ أخوه مثلاً أو والدته؟

– ليس لـ «بول» إخوة يا آنسة ولا أخوات. لو كان الأمر كذلك لتنافس معهم على إرضاء أبيه. لم تستطع «هاريت» أن تتأخر. فاستأذنت بالانصراف وقالت:

– إن لم أجد أحدًا هنا بإمكانه مساعدتي، فيجب أن أعثر على من يساعدني... هزت السيدة العجوز رأسها قائلة:

– أي، أي، أي، أنتم الشباب ليس لديكم الوقت لتقفوا وتكلموا سيدة عجوزًا.

– الأمر ليس كذلك. نظرت «هاريت» إليها مستسلمة وأردفت:

– ابنة أختي وحدها وعليّ إحضار أحد لإسعافها.

– آسفة يا آنسة. هزّت العجوز رأسها، واستدارت بحركة متأنية وأقفلت

الباب في وجهها. وقفت «هاريت» تنظر إلى الباب مشدوهة ثم استدارت وعادت أدراجها إلى طريق الوادي. كان فمها جافًا، وتاقت إلى شربة ماء، إنّما لا وقت الآن. راحت تمشي وتنظر حولها متسائلة عما إذا كانت ستلتقي أحدًا. لكن الأحراج كالغدير مكان معزول، تستعمله الطيور والحيوانات أكثر مما يستعمله البشر. وأخيرًا وصلت الدرب، وشاهدت المنزل أمامها. كان يبدو هادئًا وحالمًا في حرارة الظهيرة، فلم تنتبه لمحاسنه... يجب أن تتدبر الأمر مع «سوزان» لتصلا إلى السيارة، ثم يصبح الأمر سهلاً لإيجاد عون. ربما الآن بعدما ارتاحت «سوزان» تستطيع المحاولة. دخلت «هاريت» المطبخ وأحست بالارتياح. لقد تركت نظارتها الشمسية في السيارة وارتاحت حين شعرت بالظل. تقدمت نحو باب الصالون ووقفت بذعر عندما رأت ابنة أختها تبدو فاقدة الوعي، لسبب ما حاولت أن تجرّ نفسها من على الأريكة وفي أثناء ذلك انفك الرباط فسقطت على الأرض وعاد الدم ينزف من ساقها.

– يا إلهي! وضعت «هاريت» يدها على فمها. لا تستطيع تحريك «سوزان» وحدها إلا إذا جرّتها إلى السيارة. أسرعت إلى الأمام وخرّت على ركبتيها قرب الفتاة البائسة وفي لحظة عصبت ساقها مجددًا وعندما لم تتحرك «سوزان» وقفت تنظر إليها يائسة. لم تجرؤ على تركها وحدها خشية أن تستيقظ وتُلحق بنفسها ضررًا ما. يجب عليها بأية طريقة أن تأخذ الفتاة إلى السيارة وربما من الأفضل أن تبقى فاقدة الوعي لأن الذي ستفعله «هاريت» قد يؤلمها. قررت أنها تحتاج إلى بساط، وإذا استطاعت أن تضع «سوزان» على البساط ثم تجرها إلى السيارة، ربما صار الأمر أسهل. عادت إلى المطبخ قطع السجاد التي اشترتها لهذه الغرفة صغيرة جدًا، لكن جلد الخروف بين السريرين قد يصلح أكثر. ركضت تصعد الدرج، متناسية الألم في ساقيها ثم مسحت يديها على بنطلونها وهي تقول لنفسها، ابقي هادئة، ولم تفلح. نزلت الدرج مسرعة وكادت تسقط لأن أصابع قدمها علقت بالسجادة، وارتجفت قائلة لنفسها

بصوت عالٍ، حاذري! ولدى دخولها المطبخ رأت جسمًا طويلاً يظلل فتحة الباب فشهقت وهتفت:

– يا إلهي! «أندريه»! ثم سقطت كومة واحدة عند أسفل الدرج. هب إليها في لحظة، ورفعها بين يديه حتى تأكد أنها تستطيع الوقوف وحدها، وسأل بصوت أجش:

– ما الأمر؟ ما الذي حدث؟ انتبهت «هاربيت» لشحوب وجهه وقالت بصعوبة بالغة:

– إنها «سوزان»، لقد وقع لها حادث بالمنجل... أنا... أنا ذهبت إلى القصر...

– أعلم أنك فعلت، لذلك أنا هنا.

– أوه! أزاحت شعرها إلى الوراء وتابعت:

– إذن جدتك...

– قالت فقط إنك أخبرتها بقصّة غير مفهومة عن حاجتك إلى مساعدة «بول».

نظرت «هاربيت» إليه وردت متلعثمة:

– «بول»... «بول» قال لي إنك غائب. هز رأسه بحيرة وقال بخواء:

– «بول» الذي قال هذا؟ ستخبرينني فيما بعد. أين هي؟

– هناك. اقتادته «هاربيت» إلى الصالون فركع قرب الفتاة الغائبة عن الوعي. وضع إبهاميه على جفنيها وفتح نقرتي عينيها ثم انتصب ونظر إلى الدماء على المقعد.

– لقد نزفت بشدة، أليس كذلك؟

– أجل. تقدم إلى المجلى ليغسل يديه قائلاً:

– سآخذها إلى «شيرون» في «بلسوربو».

– «شيرون»؟ هل هو طبيب؟

– لديه عيادة صغيرة. جفف يديه وسألها:

– هل لديك شيء نظيف نربط به ساقها، وبطانية؟ لا نريدها أن تصاب ببرد.

– أجل، أجل. ونظرت حولها بلا تركيز:

– ألا يوجد أطباء في «روشلاك»؟

– أجل، لكنهم لن يتمكنوا من عملية نقل الدم. ثم عاد إلى الصالون وذكرها بالرباط المطلوب. اندفعت «هاربيت» إلى فوق لتحضر غطاء مخدة نظيفًا وحوامًا. ولما نزلت ثانية وجدته يحمل «سوزان» برفق، وأرشدها قائلاً:

– ضعي البطانية على الأريكة. مدد الفتاة على الحرام واستدار ليتناول غطاء الوسادة وسألها هل هذا هو الرباط؟

– هذا كل ما لديّ. فمزق القماش قائلاً:

– اذهبي وافتحي الباب. وربط ساق «سوزان» التي بدأت تتحرك.

– الباب؟ إنه مفتوح. أحست «هاربيت» أنها تتصرف بغباء، وأفهمها «أندريه» بصوت هادئ:

– باب سيارتي.

– لم أعرف أنك أتيت بالسيارة. أجابها «أندريه»:

– لا أظن أنك كنت في حالة تسمح لك بالاستماع إلى أي شيء. فألقت «هاربيت» نظرة طويلة وحزينة على الفتاة ثم غادرت الغرفة. كانت الشمس في الخارج تعمي البصر بعد برودة الجو داخل البيت، وتذكرت «هاربيت» كم هي عطشة. قرب سيارة الفيات كانت تقف سيارة سيتروين مغطاة بالغبار، فتقدمت إليها بسرعة وفتحت الباب الخلفي. ونظرت إلى الوراء عندما سمعت «أندريه» يناديها:

– هل ستأتين معنا؟ وعندما أومأت إليه، تابع قائلاً:

– إذن من الأفضل أن تقفلي باب البيت.

– أجل. أسرعت إلى البيت مارّة بـ«أندريه» وهو يحمل الفتاة. كانت عينا

www.rewity.com مـــر مـــور

«سوزان» مفتوحتين تنظران إليها بقلق فهمست لها بحنان:

– لا بأس عليك يا حبيبتي، ستصبحين بأحسن حال. سألت «سوزان» وعيناها تدمعان:

– ماذا حصل؟ إلى أين نذهب؟ فأجابها «أندريه» بحزم:

– لزيارة الطبيب. ثم نظر إلى «هاربيت» نظرة ثاقبة، فهزت رأسها وأسرعت تقفل الباب. لما عادت كان «أندريه» قد أجلس «سوزان» على المقعد الخلفي بطريقة مريحة. همّت بالجلوس قرب الفتاة لكن «أندريه» قال:

– من الأفضل أن تجلسي على المقعد الأمامي. نفذت طلبه فورًا بعدما رمقت «سوزان» بنظرة عطف أقفل «أندريه» الباب وقاد السيارة إلى الوراء بمهارة على الممر ولم تحس «سوزان» بالاهتزاز بسبب وسائد السيارة المريحة، وسرعان ما سلكوا الطريق المؤدي إلى «بلسوربو». كتب على اللافتة أن البلدة تبعد سبعة كيلومترات، وأحست «هاربيت» بارتياح. كانت المسافة أقل من ثمانية كيلومترات، وقطعها لا يستغرق الكثير من الوقت خصوصًا أن «أندريه» يعرف إلى أين يذهب. ألقت نظرة جانبية على الرجل الذي يقود السيارة بثقة وبيدين نحيلتين. يجب أن تشكره، ولم يكن من السهل أن تكون مدينة له. لقد عامل «سوزان» بغاية الرفق، وأحست بالحسرة للطريقة التي عاملته بها في لقائهما الأخير. كانت تبرّر لنفسها وهي تنظر من خلال النافذة. ولم لا؟ فهو الذي تسبّب في حقدها عليه، والله يعلم أن لديها كل الحق لتكرهه. تحركت «سوزان»، فانتهزت «هاربيت» هذه الفرصة لقطع حبل الصمت وقالت:

– كيف تشعرين؟ ارتجفت شفتا «سوزان» وهي تجيب:

– أشعر برعشة وحرارة. أرادت أن تزيح الحرام لكن «أندريه» نظر إليها وقال:

– دعيه عليها. فامتثلت لرغبته:

– كيف حصل الحادث؟ كان سؤال «أندريه» متوقعًا، لكن «هاربيت» وجدت الإجابة عليه صعبة:

– «سوزان»... كنت أنا في «روشلاك»، ويبدو أن «سوزان» قررت أن تكمل قصّ العشب.

– بالمنجل؟

– أجل. عضت «هاربيت» على شفتها السفلى وتابعت كمن يهذي:

– «بول» استعمل المنجل من قبل... كان يجب أن أمنعه من ذلك؛ لأنه أداة خطرة. راح «أندريه» ينظر إليها كأنه يوبخها ويستصغرها فأحست أنها بلهاء وغير قديرة. لو حدث لـ «بول» حادث كهذا أو أسوأ منه فكيف يكون إحساسها؟ أشعرها رد الفعل المتأخر بالغثيان. وأحست أن ساعات قد مضت منذ كانت جالسة مع «بول» في مقهى «روشلاك» تحتسي القهوة مما زاد إحساس الفراغ بداخلها.

– كيف تشعرين؟ سألها «أندريه» فجأة وقد لاحظ شحوبها، فتحركت في مقعدها كي لا يرى وجهها وأجابته باقتضاب:

– على ما يرام. لم يبد أية ملاحظة أخرى، وأخذ يحادث «سوزان» ويؤكد لها أن الدكتور «شيرون» كان لطيفًا وسيعالجها عما قريب وتتحسن حالتها. كانت «بلسوربو» أكبر بقليل من «روشلاك» وتقع في الناحية المنخفضة من الوادي. جسر مقوّس فوق خندق مائي أوصلهم إلى ساحة البلدة الصاخبة، ونافورة تسكب الماء في حوض حيث يلعب الأولاد. أبنية من الأحجار الطبيعية مزينة بستائر ملونة تظلل الزبائن المتوافدين للشراء في وقت الظهر، وشرفات مزدانة بزهور «إبرة الراعي» و «اللوبيليا» الحمراء القانية. قطع «أندريه» الساحة، ودخل زقاقًا مرصوفًا بالحجارة. أدراج حديدية قادت إلى منازل فوق مرائب كانت في القديم إسطبلات للخيول. خرجت «هاربيت» من السيارة وثيابها مشوشة فرأت اللافتة التي كتب عليها عيادة الدكتور «شيرون»، وتململت

بينما «أندريه» يحمل الفتاة ليخرجها من السيارة. كانت ساقاها مخدرتين ولكنها أجبرت نفسها على اللحاق بهما لأنها رأت «أندريه» يصعد الدرج باتجاه الباب المطلي باللون الأبيض. من الغباء أن تنهار الآن بعد أن انتهت الأزمة. بيد أنها مسرورة لوجود الدرابزين. استقبلتهم ممرضة بدا أنها تعرف «أندريه» جيدًا مما ساعده على تعجيل الأمور. عثر على الدكتور «شيرون» في دقائق. وجرّت «سوزان» على نقالة إلى غرفة العمليات الصغيرة. وبينما هي جالسة مع «أندريه» في غرفة الانتظار، سألها:

– هل أنت قادرة على إعطائهم بعض التفاصيل عن «سوزان»؟ تنهدت بصعوبة وقالت:

– أظن ذلك. لا حاجة إلى أن تنتظر معي، فقد يستغرق هذا بعض الوقت. فقطب «أندريه» وقال:

– هل تعتقدين أنها ستترك هذا المكان اليوم؟ وعندما رأى الوجوم على وجهها، أكمل:

– من الأكيد أنهم سيبقونها هنا على الأقل لمدة أربع وعشرين ساعة للمراقبة.

– إنني... إنني لم أتوقع هذا... وضعت يدها على رأسها كأنها تحس بدوار وسألته:

– هل تعتقد أنها ستكون على ما يرام؟

– فقدت كميّة كبيرة من الدم لكن هذا لن يعوق شفاءها في عصرنا هذا. الخطر الوحيد هو الالتهاب وأنا واثق بأن «شيرون» سيعطيها كل الحقن اللازمة. فركت «هاربيت» يديها ثم أحنت رأسها قائلة:

– إذن لست أحتاج إلى تضييع وقتك بعد الآن. صمت «أندريه» فترة قصيرة ثم قال بهدوء:

– هل قلت إنني أضيع وقتي؟

– كلا، لكن... من الواضح أنك تضيعه. ضمت راحتيها بقوة وهي تتهرب من النظر إلى عينيه الثاقبتين وتابعت:

– لا أعرف كيف أشكرك على مساعدتك لنا. فذكرها «أندريه» قائلاً:

– لكنك لم تطلبي مني العون، أليس كذلك؟ ربما تستطيعين الآن أن تقولي لي كيف تورط «بول» في كل هذا. هل أزعجك ثانية؟ أجابت بارتباك:

– كلا... نحن التقينا هذا الصباح في «روشلاك»... تناولت القهوة معه...

– بينما كانت «سوزان» تقطع العشب؟ احتجت «هاربيت» وهي تتنهد:

– لم أعرف أنها كانت تقلم الحشيش. وبصراحة لم أستطع أن أكون وقحة وأرفض دعوة «بول». فقال بلهجة جافة:

– مما يسترعي الانتباه أنك لم تستعملي الاعتبار نفسه معي، لم تكن عندك محاذير كهذه بالنسبة إليّ. أزعجها «أندريه» والغرفة التي يجلسان فيها صغيرة فأدارت نظرها عنه. حتى وهو يرتدي بنطلون جينز ملطخًا بالوحل، وقميصًا من القطن الخشن، كانت جاذبيته كاسحة... وكلما أمضت وقتًا أطول معه صعب عليها أن تتناسى آخر مرة التقيا فيها... غمغمت لتقطع الصمت الثقيل:

– أتساءل إن كان سيطول بقاؤهم في الداخل؟ فابتعد ووقف ينظر من خلال النافذة، ثم سألها فجأة:

– من أعطاك فكرة شراء بيت في «الدوردون»؟ فوضعت يديها في جيبي بنطلونها كي لا يرى ارتجافهما وقالت:

– كنت أحب دائمًا هذه الناحية من «فرنسا». وقال لي «تشارلز» إن توظيف المال في البيوت شيء مربح. قال:

– «تشارلز»؟! وهزت رأسها:

– أجل «تشارلز هوكني»، رب عملي... أنا متأكدة أنك تذكره. لم تستطع أن تحذف السخرية، فاستدار ونظر إليها بغضب وقال باستفزاز:

www.rewity.com

– أجل أتذكر «تشارلز» وأريكته المصنوعة من جلد الحصان التي كانت في الغرفة الخلفية. احمرّت وجنتاها وأجابت:

– من الأكيد أن تذكر ذلك. فاكفهر وجه «أندريه» وقال بوجوم:

– ولم لا؟ لماذا لا أتذكر؟ كنا سعيدين هناك. ردّت بحدة وهي تمشي في أرجاء الغرفة بخطى قلقة:

– أنت كنت سعيدًا. ثم استطردت بخوف:

– أوه، ليتهم يخبرونني ماذا يدور في الداخل! كان «أندريه» ينظر إليها، فاستجمعت قواها ورفعت رأسها لتواجهه. لماذا يريد أن يكون كل شيء حسب رغبته؟ سألها بهدوء:

– هل تقصدين القول إننا لم نسعد معًا أبدًا؟ فقفز قلبها وقالت بإجهاد:

– أفضل ألا أتكلم عن ذلك... هل... الدكتور «شيرون» صديق لك؟ أجابها «أندريه» متجهمًا:

– بالله عليك يا «هاربيت»، تكلمي معي كما تتكلمين مع ابني، قولي لي، ماذا كنت تنتظرين أن أفعل؟

– أنت تسألني هذا! شهقت وأردفت وهي تشيح عنه:

– حسنًا يا سيدي... هل عليّ أن أناديك «كونت»؟ قل لي، كيف حال زوجتك؟ فاستشاط غضبًا، ثم قال برأس منحن:

– ألم يقل لك «بول» إن والدته توفيت؟

– ماتت! لم تستطع إيقاف نفسها وأكملت متلعثمة:

– أنا... كلا! طبعًا لم يقل لي. ثم غطت عنقها بكفيها وسألته:

– لماذا لم تخبرني؟

– هل كنت استمعت إليّ؟ توفيت منذ ستة أشهر.

– ستة أشهر؟ لم تستطع «هاربيت» منع نفسها من إعادة كل ما يقوله... وتابعت:

– إنني... إنني آسفة. رفع حاجبيه مستفهمًا. وقال:

– لا أرى حاجة إلى أسفك. أنت لم تتعرفي إلى زوجتي. حبست «هاربيت» أنفاسها وأجابت:

– أشعر بالإحساس نفسه لأي كان؛ لأن الموت دائمًا مؤلم. أجابها:

– الموت يمكن أن يكون تحرّرًا. على كل حال، أقبل تعازيك. نظرت إليه «هاربيت» بعدم ارتياح وقالت:

– هل كانت... أكانت تعاني مرضًا؟ تقلصت شفتاه وردّ باختصار:

– نعم. كانت مريضة.

– هل مرضت طويلا؟ تنهد قائلا:

– نعم، كان مرضًا مزمنًا.

– منذ متى؟ فجأة كان لابد لها من أن تعلم، فسألها:

– وهل الأمر يهمك؟

– أحب أن أعرف. نظر إليها باتزان ثم قال:

– منذ عشر أو إحدى عشرة سنة.

– إحدى عشرة سنة! ارتاعت «هاربيت». هذا يعني... في أثناء لقاءاتهما تلك... كان مجرى هذا التفكير فظيعًا للغاية، فغطت وجنتيها بكفيها وابتعدت عنه لتفصل بينهما الغرفة الصغيرة... فقال بوجوم:

– مسمار آخر يدق في نعشي، أليس كذلك؟ أجل، كانت عليلة عندما كنت ألقاك. هذا ما تريدين سماعه، أليس كذلك؟

– لا أريد سماعه. فأجابها:

– لكن هذا يروق لك وربما يعطي تبريرًا للطريقة التي تعاملينني بها؟ شدّت «هاربيت» شفتيها المرتجفتين وقالت:

– هذا لا يسرّني أبدًا. اعوجت شفتاه بعصبية وأجابها:

– كلاّ، لديّ انطباع واضح بأنك تفتشين... كيف تعبّرين عن هذا... إنك

www.rewity.com

تؤججين نار كراهيتك! لا تودين أن تشعري بأنك مدينة لي، والآن أنت سعيدة.

– هذا ليس صحيحًا. كان يبتعد ويفتح باب غرفة الاستقبال ثم تركها وحيدة وهي تشعر بإحساس مرهق وبأنه على حق. من الممكن أن تحتقره، لكنه الرجل الوحيد الذي يستطيع تدمير أي دفاع ترفعه ضده. تقدمت نحو الباب لتسمعه يخاطب الممرضة. كان يسألها عما يدور في الداخل، فأكدت الممرضة له وهي تبتسم أن الدكتور «شيرون» سيقابلهما بعد قليل. كان واضحًا أن الممرضة قد أعجبت به، وعندما ابتسمت لها أحسّت «هاربيت» بانقباض مؤلم في عضلات معدتها. ارتكزت على الحائط قرب الباب وهي تحاول استعادة رباطة جأشها إنما دون جدوى. أحست بغثيان، يا للعار! تقيأت ولم تستطع منع نفسها من ذلك. أحسّت بقدوم «أندريه» والممرضة، وبدا على وجه كل منهما الاهتمام. وأطبق «أندريه» أصابعه النحيلة على ذراعها وجرّها برفق خارج الغرفة عبر بهو الانتظار وإلى الباب الخارجي. السلم الحديدي كان في الظل ونسيم خفيف يمرّ في الزقاق ويلطّف وجنتيها. أحسّت «هاربيت» بالمهانة فابتعدت عن «أندريه» واتكأت على الدرابزين وهي تستنشق الهواء المنعش وبدأ الغثيان يتلاشى. ارتعدت عندما تذكرت وتأوهت قائلة مخاطبة نفسها:

– ماذا ستقول عني الممرضة؟ لكن «أندريه» سمعها، فقال وهو يتكئ قربها على الدرابزين:

– من تقصدين؟ الآنسة «دوبوا»؟ إنها ممرضة ومعتادة المرض. نظرت إليه «هاربيت» قائلة:

– أنا لست المريضة. كان يجب أن أسأل عن مكان الحمّام. فرك «أندريه» أنفه متأملاً وقال:

– من الواضح أنه لم يكن لديك متسع من الوقت. نظرت إليه بسرعة، معتقدة

أنه يهزأ بها، لكنه بدا جديًا وأضاف:

– هل تشعرين بتحسّن الآن؟ أحست «هاربيت» أنها تفقد توازنها واعترفت بصدق:

– لا أعرف، لابد من أن الصدمة أحدثت ردّ الفعل هذا. فاستوضحها باهتمام:

– هل تناولت شيئًا من الطعام اليوم؟

– بعض الخبز المحمص.

– أهذا كل شيء؟

– كان نهارًا محمومًا، أليس كذلك؟ انتصب مجيبًا:

– أجل، في أكثر من مجال على ما أعتقد. ثم فتح الباب وأردف:

– بعد استشارة الدكتور سنذهب لتناول الغداء، أليس كذلك؟ نظرت إليه وسألته مرتبكة:

– لماذا... لماذا تهتم إذا كنت قد تناولت وجبة الغداء؟ انقبض فمه وقال:

– سؤال جيد. لكنه لم يعط له جوابًا. كانت الممرضة تنتظرهما، وأقبلت تقول وهي تبتسم لـ «هاربيت»:

– الطبيب جاهز لمقابلتكما، هل استرحت؟ أجابت «هاربيت»:

– شكرًا، لقد تحسنت كثيرًا، وأن آسفة على ما حصل. فأكدت لها الفتاة قائلة:

– هذا ليس مهمًا. اتبعيني من فضلك. جلس «أندريه» في حجرة الانتظار واضطرت «هاربيت» إلى مرافقة الممرضة عبر الباب المؤدي إلى الرواق. مكتب الطبيب كان ثاني باب في الممر. تركتها الممرضة لتذهب وتحادث «أندريه» على الأرجح. كان الدكتور «شيرون» أصغر سنًا مما تصورت، متوسط القامة وله سالفان، وشعر يميل إلى اللون البني. لم يكن رجلا جذابًا لكن معطفه الأبيض أضفى عليه نوعًا من الجاذبية والسلطة. ابتسم محييًا باللغة الإنجليزية:

www.rewity.com

– آه، آنسة «إنغرام». تفضلي بالجلوس. أخذت «هاربيت» الكرسي المواجه لمكتبه. كانت متأثرة بمضاعفات الغثيان والقلق على حالة «سوزان». أتم الدكتور «شيرون» كتابة شيء ما وأطبق الملف ثم جلس قبالتها وقال:

– والآن، هل أنت خالة الصغيرة؟

– أجل، كيف حالها؟ هل ستكون على ما يرام؟ لقد فقدت كمية كبيرة من الدم. ابتسم الطبيب مطمئنًا:

– لا داعي للقلق يا آنسة. الفتاة نزفت بغزارة لكن هذا قد عولج، والآن بقيت إمكانية الالتهاب. شدت قبضتها على ذراعي الكرسي، وقالت:

– هل الالتهاب محتمل؟ عبس وهو ينظر إلى يديها الناعمتين بأظافرهما المقلمة والمختلفتين عن يدي «أندريه» القاسيتين. حاولت أن تركز في كلام الطبيب:

– يجب إبقاء ابنة أختك هنا، على الأقل لهذه الليلة، فساقها تحتاج إلى راحة كما تعلمين، ولدينا كل التسهيلات المطلوبة لعلاج الحالات الطارئة. أومأت «هاربيت» قائلة:

– أفهم. نظر إليها بلطف وتابع:

– لا أتوقع أي طارئ يا آنسة «إنغرام». إن ابنة أختك شابة وبصحة جيدة. كان الجرح نظيفًا لكن الأداة تقلقني. من الممكن أن تكون أدوات الحديقة خطرة. أومأت «هاربيت» إليه قائلة:

– هل يمكنني مشاهدتها؟

– بالطبع، لكن ربما بإمكانك أولا أن تعطيني بعض الإيضاحات عنها... اسمها، تاريخ ولادتها، عنوان سكنها... إلى آخره. سيستغرق هذا دقيقة، ثم تستطيعين لقاءها لوقت قصير. اسمها «سوزان»، أليس كذلك؟ لقد أعطيناها مسكنا وأقترح أن تبقي معها لدقائق معدودة. كانت «سوزان» ناعسة عندما دخلت «هاربيت» لمشاهدتها، لكنها قبضت على يدي خالتها وصرخت:

– لا تتركيني هنا. فشدت على أصابعها مطمئنة وقالت:

– عليّ أن أفعل ذلك. ستبقين هنا الليلة ونأخذك غدًا إلى البيت.

– ولكنني لا أتكلم الفرنسية. فعزتها «سوزان» قائلة:

– لا تقلقي يا حبيبتي، إنهم يتكلمون الإنجليزية وسيهتمون بك.

– أين السيد «لاروش»؟ تقلصت «هاربيت» وأجابت:

– لماذا تسألين؟

– أود مشاهدته لأشكره لأنه جاء بي إلى هنا.

– سوف تفعلين غدًا. والآن عليك أن تستريحي لتستعيدي قواك وتذهبي إلى البيت. دمعت عينا «سوزان» وقالت:

– هل يمكنك أن تعودي لاحقًا؟ ترددت «هاربيت» وأجابت:

– ربما أستطيع. سأستوضح الأمر وأنا خارجة. وإذا استطعت، أعدك بأن أفعل. شهقت «سوزان» قائلة:

– لقد خيطوا ساقي. وقالت المرضة إن الجرح احتاج إلى عشرين قطبة (غرزة). هزت «هاربيت» رأسها قائلة:

– عشرون قطبة (غرزة)؟ هذا كثير.

– أعلم ذلك. وزها وجهها عندما أيقنت أنه أصبح لديها قصة ترويها لصديقاتها في المدرسة عندما تعود إلى «إنجلترا»، ثم تهدل فمها وعلقت بحزن:

– لن أستطيع لعب التنس في هذه السنة. فشجعتها «هاربيت» بقولها:

– ستفعلين في العام المقبل. عندئذ دخلت إحدى المرضات فقالت خالتها:

– يجب أن أذهب الآن. قالت المرضة بلطف:

– من فضلك يا آنسة. فانحنت «هاربيت» وقبلت خد «سوزان» هامسة بحنان:

– سأراك فيما بعد. وابتسمت وهي تغادر الغرفة. لكنها في الخارج فقدت الثقة ومشت باتجاه بهو الاستقبال وهي تحس نفسها غريبة على أرض غريبة.

www.rewity.com

كانت السيدة «إنغرام» صعبة الإقناع بأصغر الأشياء، وجرح احتاج إلى عشرين قطبة (غرزة) لم يكن أمرًا تافهًا. وجدت المرضة خلف مكتبها حين ظهرت على الباب إنما لم تجد أثرًا لـ «أندريه». امتعضت، وانهارت معنوياتها، لكنها وضعت أحاسيسها جانبًا واقتربت من المكتب وهي تسأل:

– هل من الممكن أن أعود لاحقًا؟ إن ابنة أختي تحس بالانقباض وليتني أزورها ثانية، في الساعة السادسة. مثلا؟ فكرت الآنسة «دوبوا» قليلا ثم قالت:

– لا أحد يمانع في ذلك لكن هل لك أن تتصلي بنا قبل مجيئك؟ شكرتها «هاربيت» وذهبت. لم تحس أنها قادرة على التفسير للآنسة «دوبوا» بأنها بلا هاتف. على كل حال قررت أن تعود فيما بعد وليس لديها شيء آخر تفعله. لاحظت أنها لم تحضر حقيبتها وكونها لا تحمل نقودًا لا تستطيع تأمين انتقالها. ترددت عند الباب وهي تميل لتسأل المرضة أن تقرضها بعض المال. وفجأة فتح الباب وظهر «أندريه». ارتاحت لرؤيته ونظرت إليه فاقدة الصوت، ولاحظت انقباض فمه قبل أن يسأل:

– هل هناك مشكلة؟ هل أنت جاهزة للذهاب؟

– ماذا؟ لملمت نفسها بصعوبة، وتابعت:

– أجل، أجل. سألها:

– هل «سوزان» على ما يرام؟ فأومأت إليه وأجابت:

– كما قلت سيبقونها هنا هذه الليلة.

– حسنًا. والآن، هل نجد مكانًا لتناول الطعام؟ مرت «هاربيت» من تحت ذراعه وهو يفتح لها الباب، ومشت مرتخية وهي تنزل السلم الحديدي. تبعها «أندريه» ثم تجاوزها ليفتح لها باب السيارة، فتوقفت وهي تحس بتوتره وقالت:

– اعتقدت أنك ذهبت.

– أذهب؟ وإلى أين أذهب؟ بدا وجهه خاليا من أي تعبير فقالت:

– إلى البيت. لتعود إلى القصر. دفعها «أندريه» بخشونة إلى داخل السيارة ثم أغلق الباب ولفّ من حول السيارة ليجلس قربها. لم يتكلم وهو يضع المفتاح ويدير المحرك. وضعت «هاربيت» يديها بين ركبتيها وتمنت لو لم تحاول أن تفسر الموقف. غادرا الزقاق ودارا حول ساحة السوق وسلكا الجسر إلى خارج المدينة. خاب أملها واندهشت لأنها كانت تنتظر أن يتناولا الطعام في أحد المقاهي تحت الشمس. ربما «أندريه» سحب دعوته لأنها تصرفت بغباء، أحست بالبرد يهاجم معدتها.

كانت تحاول استجماع شجاعتها لتسأله إلى أين سيذهبان حين انحرف عن الطريق إلى درب ضيق مظلل بالأشجار كأنه يقود إلى طريق مسدود. انتهى الطريق فجأة إلى بوابة حديدية، حيث المراعي تنحدر إلى النهر والضفاف ملأى بالأزهار. كان المكان رائعًا، وصوت جرس الساعة يقرع عن بعد مما زاد من رونقه. نظر «أندريه» إليها ولاحظ نظراتها المستغربة فقال:

– ظننت أنك تفضلين هذا المكان على أي مقهى تحت أنظار عشرات الناس. أنت غريبة هنا والناس فضوليون.

– هل سنتناول طعامنا في الهواء الطلق؟ مد «أندريه» يده إلى المقعد الخلفي للسيارة وأخرج رغيفًا فرنسيًا طويلا، وبعض الجبنة ودراقًا مقشرًا، وقال بهدوء:

– أحضرت هذه الأشياء وأنت تتكلمين مع الطبيب.

– لم أعرف، لم أتصور. تلعثمت لكنه هز كتفيه بطريقته المعهودة وفتح باب السيارة. بعد تردد قصير لحقت به وأسرعت لتفتح البوابة.

أغصان شجرة الكستناء المتفرقة كانت تؤمن واحة ظل. وبعد استئذان «هاربيت» فرش «أندريه» البطانية التي حمل بها سوزان» على الحشائش. ثم شمّت أشهى رائحة خبز عندما قطعه. جلست على طرف البساط، وهي

www.RWAYA.COM

تتمتع بالمنظر الذي يبدو مألوفا ولكنه غير مألوف. محاسن هذا المكان تشبه المناظر التي تعرفها في «إنجلترا». كانت الألوان نفسها إنما تختلف بعض الشيء، فالخضرة هنا أغمق وأقوى، وخط التلال الحمراء أقسى...الشفق يخيم بكسل فوق المراعي ويبعث رائحة عشب وثوم بري... وسرب من الإوز البري أزعجه شيء غريب فاندفع إلى السماء وأجنحته القاتمة ترفرف في عرض الأفق.

أسندت «هاربيت» ذقنها إلى ركبتها وتساءلت أي خطر زجت نفسها فيه؟

- 8 -

اتكأ «أندريه» على جذع الشجرة وفتح زجاجة عصير الفاكهة قائلا:

- اعذريني، ليس عندي أقداح. ثم نظف عنق الزجاجة براحة يده وقال:

- هل تمانعين؟ هزت «هاربيت» رأسها وهي لا تجرؤ على الكلام كي لا تفسد جمال اللحظة. قدم إليها الزجاجة لتشرب أولا وكانت لاتزال باردة ومنعشة. بقي مذاق العصير على لسانها لفترة بعدما أعادتها إليه. ثم قالت:

- طعم الخبز كان لذيذًا كرائحته ونكهة الجبنة قوية ومرضية. سال عصير ثمرة الدراق (الخوخ) التي في يدها على أصابعها فأخذت تلعقه بلسانها كما يفعل الأطفال. شعرت بدهشة لإحساسها القوي بالجوع آخذة في الاعتبار ما حدث صبيحة هذا اليوم. وأدركت أن الساعة قد جاوزت الثالثة، فسألته:

- ألا تتساءل جدتك أين أنت؟ فأنزل الزجاجة من شفتيه وأجاب محدقًا إليها باهتمام مركز:

- «لويز»؟ ربما، لا شك في أنها تعتقد أني عدت إلى عملي. مسحت «هاربيت» بيدها آخر نقطة من العصير عن فمها وسألت:

- هل أنت تعمل؟ ماذا تفعل؟ أسند رأسه إلى جذع الشجرة وأجاب:

- أنا مزارع وماذا يفعل المزارعون؟ اتسعت حدقتاها وقالت مترددة:

- لكنك الكونت «دو روش فورت». تقلصت شفتاه وصحح لها بشدة:

- أنا «أندريه لاروش» وما نفع الألقاب لي؟ نظرت «هاربيت» إلى أصابع قدميها. عرفت أنه ليس الوحيد في هذا الوضع. كانت المقاييس تتبدل في جميع أنحاء «أوروبا»، وفي «إنجلترا» مثلا معظم الأملاك بيعت أو قدمت هبة إلى الدولة ولم يسمح بتوريث الثراء. لكن الأمر يبدو مختلفا بالنسبة إلى «أندريه» سألها:

- ما الأمر؟ إنها طريقة شريفة لكسب العيش، أليس كذلك؟ وافقت بسرعة قائلة:

- أجل.

- لكن لماذا يظهر عليك الانزعاج؟ هزت «هاربيت» كتفيها وبدت عاجزة عن التفكير. كيف تفسر له أن هذه الصورة الجديدة لا تطابق الصورة التي عرفتها عنه سابقًا؟ رجل يتحاشى ذكر مهنته لأنه غير محترف. ولاحظت أن يديه الناعمتين منذ ثماني سنوات قد خشنتا الآن. قالت:

- آسفة لأنك لا تستطيع صيانة القصر كما كنت تفعل.

- ربما تظنين أن فلاحًا صغيرًا لا يصلح لأن يشاركك غداءه. نظرت إليه متألمة وهزت رأسها قائلة:

- هذا ليس صحيحًا. في الحقيقة لا يتناسب ذلك مع الذي عرفته عنك. أجابها بحدة:

- ماذا تعتقدين أنك تعرفين عني؟ وأخذ يشتم بغضب وأكمل:

- تناسي الموضوع. إنها أمسية حارة لا تصلح للنقاش. أطبق عينيه كي لا يراها، فوجدت نفسها تقبض على معصميها بقوة. خلع معطفه، وفتح أزرار قميصه. كانت ساقاه ممدودتين أمامه بكسل، لكن خطوط عضلاته تبرز تحت قماش بنطلونه الخشن. تساءلت «هاربيت» عن شكل زوجته، وإن كان

«أندريه» قد أحبها كثيرًا. لقد رزقا بولد واحد، وهذا يعني ربما حملا صعبًا واختلاطات لاحقة. أو من المحتمل أن زوجته لم ترغب في إنجاب أطفال آخرين. ارتعدت «هارييت» ووضعت يديها على بطنها. هل كان اختلف الأمر لو عرف الحقيقة؟

فتح عينيه فأشاحت طرفها عنه لكن ليس قبل تلاقي نظراتهما، وملاحظتها الاهتمام الذي ظهر في نظرته.. ولتحول انتباهه عنها، أخذت تجمع بقايا الغداء في كيس من الورق. فرأته يمسك بزجاجة العصير التي لم تفرغ بعد وسألها:

– هل أنت عطشة؟ هزت رأسها:

– كلا. كنت أتساءل عن مصير الزجاجة، أعتذر إن كنت سببت لك إزعاجًا.

– أنت دائمًا توترينني. أخذ نبضها ينتفض. ابتعد عن الشجرة، ثم استلقى على البطانية وتمدد بقربها. للحظة خيل إليها أنه سيلمسها فتوترت أعصابها بترقب. لكنه لم يفعل بل مد ساقيه ورفع زجاجة العصير إلى فمه. أرادت أن تبتعد عنه. كانت ذراعه على مقربة منها إلا أنها لم تتحرك كي لا يصبح الأمر جليًا. كذلك لا يجب أن تتوتر عندما تكون على مقربة منه. سألها:

– خبريني يا «هارييت»، لماذا عزفت عن الزواج حتى الآن؟ انقبضت وأجابت بسرعة:

– لأنه لم يطلبني أحد.

– لا أصدق هذا. ماذا جرى للشبان المعجبين الذين كنت تعرفينهم في بلدك؟

– لقد انتقلت إلى «لندن» حيث أسكن الآن.

– ألا يوجد رجال في «لندن»؟ ورمقها بنظرة قاتمة وأضاف:

– لا أصدق أن ليس لديك معجبون؟

– أتقصد بعدك أنت؟ لفظت العبارة وهي تكاد تختنق، وأردفت بحنق:

– أتظن أنه كانت لي علاقات كالعلاقة التي كانت بيننا؟ زمجر «أندريه» بعنف واستدار قائلا:

– كلا، لم أعتقد شيئًا من هذا القبيل. لكنني لست غبيًا، لقد دربت نفسي على ألا أكون الرجل الوحيد الذي له تأثير فيك.

– إذن تعتقد أني أقمت علاقات. ربما، لكنك لن تعرف الحقيقة أبدًا، أليس كذلك؟ قالت هذه العبارة بمرارة فصرخ فيها:

– «هارييت». الطريقة التي لفظ بها اسمها أثارت مشاعرها، وعندما ناداها ثانية بعاطفة، ارتعد جسمها ليتجاوب مع رغبة صوته الملحة. لم تنصع لتأثيره بل أبقت عينيها مفتوحتين وهي تحدق إلى زرقة السماء، وتذكرت ما سيحصل لو أذعنت. أحس بنفورها مع أنها لم تستطع منع التفاعلات التي أثارها فيها. ثم زفر بصوت منخفض وابتعد عنها يستلقي على ظهره بجانبها ويداه مشدودتان فوق رأسه كما لو أنه يمنعه من الانفجار، تنفس بتقطع وقال بخشونة:

– وأخيرًا، انتهى كل شيء. نهض بوحشية وسحب سترته بيدين مرتجفتين وأضاف:

– تعالي، سنذهب الآن. لم تحس «هارييت» أنها كانت ممسكة أنفاسها حتى بدأت تتحرك، ثم شعرت بصعوبة عند تنشقها الأكسيجين لأنها أحست بألم شديد في رئتيها وقلبها من قوة التشنج. سألت نفسها بذعر وهي تجلس لترتب ثيابها ماذا حدث لها؟ لقد برهنت له على أنها لم تعد تلك الفتاة الصغيرة السريعة التأثير التي عهدها وأنه لن يخدعها ثانية. إذن لماذا لم تحس بالانتصار؟ عندما نهضت، أخذ «أندريه» البطانية والكيس المحتوي على الفضلات. وقالت في نفسها: «يا للخسارة!» لحقت به إلى البوابة لكن هذه الكلمة دلت على علاقتهما وكان عليها أن تصارع الدموع قبل أن تنهمر.

استغرقا بعض الوقت للوصول إلى البيت، وعندما سألها «أندريه» الذي بقي

صامتًا طول الطريق، إن كانت ستعود إلى «بلسوربو» في الصباح. فأجابته:

– لقد وعدت «سوزان» أن أعودها هذا المساء فهي لم تكن مسرورة عندما تركتها هناك. قلت لها إنني سأحاول رؤيتها ثانية اليوم.

– فهمت. هل تظنين أنه من الصواب أن تفعلي ذلك؟

– ولم لا؟ كانت ستناقشه لكنه فتح يديه ليعبر عن موافقته وقال:

– كما تشائين. ولم يزد شيئًا. همت بالنزول من السيارة وقالت:

– أشكرك ثانية.

لكنه اكتفى بهز رأسه وغادر المكان فورًا. تجولت «هاربيت» في الغرف الخالية، وهي تضغط على نفسها كي لا تشفق على ذاتها. فأحضرت دلوًا من الماء وقطعًا من القماش لتغسل الدم الذي لطخ المقعد. وبينما كانت تعمل بيديها، كان عقلها حرًا ليهيم كيفما شاء، ومن المحتم أن تفكر في «أندريه» وبما قاله عن زوجته.

تساءلت عن نوع المرض الذي طال أمده لسنين عديدة. هنالك عدة احتمالات، وأيقنت كم هذه الأمراض مدمرة للزواج. لكن هذا العذر لا يبرر تصرف «أندريه»، وأخذت تفرك أكثر من اللازم حتى آلمتها ذراعها. كون زوجته مريضة ليس عذرًا قويًا ليبحث عن المتعة في مكان آخر، أو ربما تغاضت زوجته عن تصرفه، إنما لا يعقل هذا.

استراحت على كعبيها، ولو استطاع أحد أن يقرأ أفكارها لحسبها تحاول أن تجد له مبررًا أو تجد مبررًا لنفسها. أو ماذا؟ ماذا فعلت لتشعر بكل هذا الانزعاج؟ أرغمت نفسها على تناول عجة بيض قبل أن تعود إلى المستشفى. هذه المرة استعملت سيارتها وأخذت معها حقيبتها، وارتدت فستانًا حريريًا بلون المشمش ذا ثنايا تبرز رشاقة ساقيها... أرادت إفهام الآنسة «دوبوا» أنها ليست تلك الفتاة المشوشة التي قابلتها صباحًا. حين وصلت كانت نوبة عمل الآنسة «دوبوا» قد انتهت، ووجدت سيدة مسنة تجلس إلى مكتب الاستقبال.

طلبت منها السماح لها بمقابلة «سوزان» فنظرت إليها بريبة ثم سألتها باللغة الفرنسية إن كان الدكتور «شيرون» قد سمح لها بزيارة المريضة. وعندما اعترفت «هاربيت» بأنها لم تستأذن الطبيب هزت السيدة رأسها معتذرة:

– آسفة، الدكتور استدعي خارج المستشفى ولا أستطيع السماح لك بالزيارة.

فتنهدت قائلة:

– لكن ابنة أختي جرحت ساقها، وستبقى هنا الليلة فقط. أجابتها المسؤولة مجددًا:

– آسفة. عندها فتح باب خلفي ونسمة من الهواء البارد أعلنت قدوم شخص ما، فاستدارت «هاربيت» وأحست بالارتياح عندما رأت الدكتور «شيرون». لم يرتد الدكتور معطفه الأبيض لكنه احتفظ بوقاره. تردد قليلا ثم تقدم نحو «هاربيت» محييًا.

– آنسة «إنغرام». أنا سعيد بلقائك ثانية. هل أتيت لزيارة «سوزان»؟ ظنت أن الطبيب لم يعرفها بعدما رآها وهي متعبة في الصباح. لكنه خبأ دهشته ببراعة. قالت وهي تصافحه:

– أتساءل إن كنت تسمح لي؟

– لا مانع لديّ يا آنسة، إنما أخشى أن تجديها نائمة. كانت مستيقظة عندما جاء صديقك، لكن الآن.

– صديقي؟ نظرت إليه «هاربيت» بدهشة فأومأ إليها الطبيب قائلا:

– أجل. «لاروش» الكونت «دو روش فورت». إنه صديق لك، أليس كذلك؟ تقلصت أصابع «هاربيت» على حقيبتها وسألت:

– هل عاد؟

– أجل. وكانت «سوزان» تتناول طعام العشاء. بدت مسرورة جدًا حين رأته. لكن بما أنك ولية أمرها، فيجب أن تصارحيني إذا كنت أخطأت بالسماح له بزيارتها؟

– أوه كلا... كلا. هزت رأسها بعنف، بيد أنها أحست بقلق لما سمعته. لماذا؟ لماذا لا يستطيع «أندريه» أن يزور «سوزان» إن أراد؟ من الواضح أن «سوزان» لا تمانع فلماذا تمانع هي؟ أحس الرجل بانزعاجها فقال لها:

– تعالي، سنذهب ونرى إن كانت مستيقظة. لكن «سوزان» كانت نائمة تتنفس بعمق. لونها طبيعي وكأن على شفتيها ابتسامة. وضع الدكتور «شيرون» أصبعه على جانب عنقها وهو يراقب ساعته ثم عاد إلى حيث تقف «هاربيت» عند مؤخرة السرير وقال هامسًا كي لا يزعج الفتاة:

– تحسنها جيد. إذا لم تظهر أعراض التسمم في ساقها صباح غد، أعتقد أننا سنسمح لها بالمغادرة. لكن عليك أن تعديني بإحضارها فورًا إذا حصل تغيير في اللون. أومأت «هاربيت» وتقدمته نحو الممر وقالت:

– أجل. وفي طريقهما إلى بهو الانتظار، اقترح الدكتور «شيرون» قائلا:

– من المؤسف أنك أتيت لزيارتها وكانت نائمة. هل تسمحين بأن أدعوك لتناول العشاء؟ نظرت إليه من طرف عينها. كان وجهه جديًا ويدل على ترقب جعل زرقة عينيه أغمق.

– أنا متأكدة يا دكتور أن لديك عملا. لم تشأ أن ترفض الدعوة بقسوة، لكنه هز رأسه قائلا:

– لقد رجعت إلى العيادة لأسأل الممرضة «جاستون» إن كان هناك حالة طارئة. وبما أنه لا يوجد طوارئ، فأنا حر هذه الليلة. توقف ليراقب تصارع العواصف على محياها المعبر، وأضاف:

– أرجوك، سيشرفني أن تشاركيني العشاء. ترددت «هاربيت». أعجبها الدكتور «شيرون» لأنه رجل ذكي ولطيف، لكنها لم تشأ أن تورط نفسها مع أي رجل وخصوصًا ممن يعرفون «أندريه». فغمغمت وهو يفتح لها الباب المروحي لتمر:

– لا أدري... لا أشعر بجوع شديد. ابتسم الطبيب، وفكرت، كم يبدو أصغر

سنًا عندما يضحك. قال:

– إذن تعالي وراقبيني وأنا أتعشى. فضحكت قائلة:

– حسنا. وافقت بذهنها وهي تؤكد لنفسها أنه لا يوجد سبب يمنعها من قبول الدعوة. فهو رجل وسيم، والبيت الخالي الذي ينتظرها لا يعجبها. ربما سهرة مع شخص موضوعي لا يعرف عنها شيئًا قد تساعدها.

تناولا العشاء في مطعم يطل على الساحة. كانت النافورة مضاءة في الليل والمياه تنساب منها بألوان مختلفة. ومع أن المطعم صغير، إلا أنه رائع! وجدت نفسها تتذوق فطائر الكبد المدقوق المشهورة في هذه المنطقة، ثم الدجاج المطبوخ بالكريما. وبعد فترة ابتسمت له عبر الطاولة المضاءة بالشموع واعترفت قائلة:

– لم أعتقد بالفعل أني كنت جائعة يا دكتور «شيرون».

– وأنا حزرت أنك لن تستطيعي مقاومة طعام «هنري» المغري... على فكرة اسمي «مرسيل»، أود أن تناديني به. حاولت «هاربيت» لفظ اسمه ثم وضعت كأسها على الطاولة وقالت:

– اسمي «هاربيت». أجاب الطبيب:

– لم أعرف أحدًا يدعى بهذا الاسم. لفظ اسمها كما يفعل «أندريه» دون أن يلفظ حرف الهاء. تساءلت عما كان يفعله «أندريه» هذه الليلة، وهل أخبر جدته وابنه عن الحادث الذي أصاب «سوزان»؟ لقد علمت الكثير عنه اليوم، لكن هناك أشياء كثيرة لم تعرفها بعد، وسوف لا تعرفها أبدًا.

كان «مرسيل» رفيقًا مسليًا، وعلى الرغم منها تمتعت «هاربيت» بالسهرة. حدثته عن عملها وشغفها بالسيراميك، ونصحها بإصرار أن تشاهد البورسلين والأواني المطلية بالمينا صنع «ليموج». وافقت بأن «ليموج» جديرة بالزيارة لكنها زارتها مع «تشارلز» منذ بضع سنوات وأحبت المنطقة آنذاك. ومؤخرًا عندما اقترح عليها «تشارلز» أن تشتري عقارًا هنا اهتمت بالموضوع. بما أنها

www.rewity.com

جاءت بسيارتها إلى «بلسوربو»، لم يحظ «مرسيل» بمرافقتها إلى البيت. كان رجلا لطيفًا واستمتعت برفقته. أوصلها إلى حيث أوقفت سيارتها بقرب الساحة. وقال:

– سأراك غدًا. هل تعرفين طريق بيتك جيدًا؟

– أعرفها تمامًا. فتحت باب سيارتها قبل أن يقوم بأية حركة للمسها. وقالت:

– شكرًا على السهرة الممتعة. أجابها بأدب ووقف يلوح لها بيده:

– كان هذا من دواعي سروري.

لقد حل الظلام وكانت الطريق تلتوي أمامها. تساءلت إن كانت حقًا تعرف الطريق إلى البيت. وتنفست الصعداء عندما رأت اللافتات عن يمينها وتأكدت من مفترق بيتها. سمحت لسيارتها أن تنحدر قبل أن توقفها أمام البيت وإذا بها ترى سيارة أخرى أمامها. كانت سيارة «أندريه» السيتروين. كاد قلبها يتوقف عندما أطفأت محرك سيارتها وترجلت. نظرت بقلق نحو البيت، لكنها لم تر أضواء. أجفلت حين انفتح باب السيتروين وخرج «أندريه». لم تر سوى جانب وجهه في ضوء السيارة الداخلي عندما فتحت الباب. سألته وهي تحس بالذنب إذ تذكرت كيف قضت أمسيتها:

– ماذا تفعل هنا؟ لم يجبها بل توجه نحو البوابة قائلا:

– هل ندخل؟ أرادت أن تجادله لكن حدسها حذرها من أن تتحداه، فدخلت البوابة ومشت عبر الممر. وحالما فتح الباب سبقها «أندريه» وأضاء المصباح بينما كانت تسدل الستائر الصفراء. ثم استدارت لتواجهه وهي واعية بمظهرها وما سيفسره به. الليلة يرتدي بنطلونًا أسود وقميصًا حريريا، واللون القاتم الذي يرتديه يظهر مزاجه المعكر. وقف قرب الموقد وقال بهدوء:

– هل ذهبت إلى المستشفى؟

– أجل كما فعلت أنت. أحنى رأسه واستوضحها:

– هل قالت لك «سوزان» ذلك؟

– كلا. الدكتور «شيرون» أخبرني.

– هل رأيت «شيرون»، وماذا قال لك؟ بللت «هاربيت» شفتيها:

– قال إنها تتحسن إنما كانت نائمة.

– أحقًا؟ لاحظت أنه يتكلم باللغة الفرنسية كلما أحس بتوتر ما، وتابع يقول:

– هل انتظرتها حتى استيقظت من النوم؟

– كلا.. تضايقت وغضبت لذلك. فماذا يعنيه كيف تقضي وقتها؟ قالت:

– كلا... في الواقع تناولت العشاء مع الدكتور «شيرون». وهنا لاحظت وجه «أندريه» يتقلص.

– أحقًا؟

– إنك لا تمانع، أليس كذلك؟ أنا فتاة حرة وأستطيع أن أختار كيف ومع من أمضي سهراتي. نظر إليها ببرود قائلا:

– وهل قلت خلاف ذلك؟

– كلا لكن... أوه... إنه ليس بالأمر المهم. هزت رأسها بخيبة وشعرها الكثيف يتأرجح حول كتفيها وقالت:

– لم تقل لي لماذا أنت هنا. وضع يديه خلف ظهره فانفتح قميصه وأجاب:

– جئت حسب توصيات «لويز»، لأدعوك إلى العشاء. فأحست «هاربيت» بموجة خجل تغمرها وتابع هو بصوت أجوف:

– بالتأكيد إن الدعوة متأخرة إلا أني أحسست بالقلق عندما لم تعودي من المستشفى فقررت أن أنتظرك هنا.

– فهمت. وضعت حقيبتها على الطاولة دون أن تنظر إليه وأردفت:

– إنني آسفة.

www.rewity.com مـــرويـــة

– لا فرق. المهم أنك الآن هنا. اهتمت «هاربيت» بالأمر، وكالمعتاد أحست أنها المخطئة فقالت بارتباك:

– أرجوك أن تشكر جدتك على الدعوة. ربما استطعت تلبيتها في وقت آخر. فنظر إليها قائلا:

– أخبرني «بول» بأنك ترفضين المجيء إلى منزلي. احمر وجهها وهتفت تدافع عن نفسها:

– كان الأمر يختلف. كان هذا قبل... قبل...

– قبل أن تعرفي أن زوجتي قد ماتت؟ حركت «هاربيت» كتفيها قائلة:

– ربما. تقلصت أساريره وقال بقسوة:

– لم أعتقد أن الأمر يهمك. فشهقت قائلة:

– حسنًا، كنت مخطئًا.

– حقًّا؟ اتسع أنفه غيظًا، ولاحظت أنه يضبط أعصابه بقوة إرادته. قال:

– مع العلم أنك بعد الظهر رفضتني بكل أوتار كيانك. أسعدها وجود الطاولة بينهما، فاتكأت عليها قائلة:

– من الأفضل أن تذهب الآن فأنا متعبة. أرخى يديه وحاولت «هاربيت» لآخر مرة أن تتصرف بشكل طبيعي. قالت:

– شكرًا. أشكرك ثانية على كل ما فعلته اليوم. أظهر حركة عدم مبالاة وأجاب بصوت فظ:

– كنت سأفعل هذا لأي كان. بالمناسبة، هناك شيء آخر، يجب أن تطلبي من الطبيب الكريم أن يقدمك إلى زوجته في وقت ما. أحست باللون يفارق وجهها وهمست لاهثة:

– إنه... متزوج...؟

– منذ عدة سنين، أنت قليلة الحظ باختيارك لمرافقيك. ارتجفت شفتاها وقالت بغضب:

– أيها... أيها الوغد، لقد تمتعت بإبلاغي هذا، أليس كذلك؟ كم يسعدك أن تراني أتلوى من الخجل! تضايق «أندريه» ورد بجفاف:

– لا تكوني بلهاء، هل تفضلين أن أخفي الحقيقة عنك؟ ماذا كنت ستفعلين لو أن السيدة «شيرون» جاءت تطرق بابك، كما فعلت في الماضي مع نساء أخريات، واتهمتك بألفاظ مهذبة، أنك أنثى منحلة الأخلاق؟ قالت «هاربيت» بطريقة آلية وهي تشيح نظرها عن وجهه الساخر:

– نساء! على كل حال أنت الذي تقول إنها تفعل ذلك.

– ومن المؤكد أن كلامي ليس كافيًا أليس كذلك؟ إذن... ستكونين في أمان هنا بمفردك.

– لا تزعم أن الأمر يهمك. أجابها ببرود جعل أنفاسها تتسارع:

– تعلمين أنه يهمني، كل ما تفعلينه يهمني، لكن هذا شيء تعلمت أن أعيش معه. انفرجت شفتاها كأنها تختنق وقالت:

– أرجوك، لا تقل لي أشياء كهذه. كلانا يعلم أنها ليست صحيحة، وأنا غير مستعدة لأن أعيد الكرة. قام «أندريه» بحركة انهزامية وقال:

– أنت قاسية جدًّا يا «هاربيت». لكن ربما أنت على حق وقد فات الأوان. تنهد ثم تابع:

– لم أصدق، لكن... وهز رأسه. أدارت نحوه عينين موجوعتين وسألته بلوعة:

– ماذا تريد مني يا «أندريه»؟ ما تريدني أن أقول؟ إنني سامحتك؟ إنني نسيت أنك عاملتني كفارس مغوار؟ رد عليها بخشونة:

– فارس؟ ما هذا؟ أنا لست بفارس.

– كلا أنت لست هكذا. أنت كل شيء باستثناء ذلك.

– إذن لماذا تقولين هذا؟

– أوه... طردت الكلمة بحركة من يدها. وتابعت:

www.rewity.com مـــرمـــوريـــة

– هذا يعني... إهمال، عدم تفكير. أظنك تعلم ماذا يعني.

– أظنك تبالغين. حسنًا. إن قبولي بمجيئك إلى «باريس» قد لعنني في نظرك، لكن يجب أن أذكرك بأنك أردت المجيء، بل يمكنني القول إنك توسلت إليَّ أن أوافقك على مجيئك.

– أوه! هذا أجمل ما سمعته منك... إنك تضع اللوم عليَّ وحدي، أليس كذلك؟

– اللوم؟ نظر إلى السماء كأنه يطلب منها وحيًا وتقدم متجاهلا احتجاجاتها وأمسكها بقوة من كتفيها:

– بالله عليك، لماذا كان عليَّ أن أشعر بأي لوم؟ كان قريبًا جدًّا مما أشعرها بارتباك وشبه اختناق، وعزت ضعفها تجاهه إلى الإرهاق الذي واجهته هذا اليوم. لكن عليها أن تنتصر على هذا الضعف وبالطريقة الوحيدة التي تعرفها. فسألته وهي ترتجف وتنظر إلى عينيه:

– كيف تحسبني شعرت حين وصلتني رسالتك؟ لابد من أنك كنت تعلم أنه لم تكن لديَّ أية فكرة. فتقلصت شفتاه وقال:

– وكيف تظنينني شعرت وأنا أكتب الرسالة؟ صدقيني، لم يكن الأمر سهلا. فصرخت يائسة:

– إذن لماذا فعلت ذلك؟ فهز رأسه بتعب وقال:

– تقصدين لماذا قبلت بقدومك إلى «باريس»؟ فهتفت باختناق:

– لماذا جعلتني أقع في حبك؟ اسودت عيناه وقال:

– كان إحساسًا متبادلا ولم تكن لي أية سلطة عليه.

– ليتك لم تتكلم معنا في قاعة المزاد!

– وأنت ليتك احترمت نصيحة «تشارلز»، أليس كذلك؟ هز رأسه ثانية وتابع يقول بندم:

– أنا حاولت يا «هاربيت». توقفت عن لقائك لكنك أردت أن تقابليني. والله

يسامحني، لم أستطع أن أرفض طلبك. فابتعدت عنه قائلة:

– ماذا... ماذا تعتقد أنه جرى لي بعد... بعد أن كتبت لي الرسالة؟ تنهد قائلا:

– حاولت ألا أفكر. حاولت ألا أتصورك مع رجل آخر. اختنق صوته، فنظرت إليه باهتمام قائلة:

– ألا تفكر في أنه كان ممكنًا... توقفت وأشاحت عنه وحاولت ثانية.

– ألم يخطر لك أبدًا احتمال أن أكون قد دفعت ثمنًا غاليًا لتلك الليلة؟

– ماذا؟ أدارها لتواجهه ونظر إليها باهتمام متوهج وقال ويده تضغط بعنف على ذراعها:

– ماذا تقولين؟ أجابته بارتجاف:

– ماذا... ماذا تظنني أحاول أن أقول؟ أفهمت؟ فصاح وهو يطبق يديه على وجهه ويشد جلد خديه إلى الوراء قبل أن ينزل ذراعيه:

– كلا! يا إلهي! كلا! تألمت «هاربيت» وهي تراه يتعذب لدى استيعابه معنى كلامها. كان البيت هادئًا، وكانا وحيدين كأنهما الوحيدان الباقيان على قيد الحياة ولم تعد تهتم بشيء سوى هذه اللحظة، وعلمت أنها لحظة اللا رجوع... ثم سمعت صوتًا مفاجئًا يهتف بحسرة:

– يا إلهي! أحست هذه الصرخة تسقط على رأسها كماء مثلج، لكن بالنسبة إلى «أندريه» كان الأمر أسوأ. إذ كان «بول» يقف مشدوها في الباب، وهو ينظر إليهما كأنه لم يشاهد أحدهما من قبل. ثم تلفظ بعبارة نابية وسمعاه يخرج متعثرا في الظلام. صرخ «أندريه» بيأس ووجهه شاحب من شدة الانفعال:

– «هاربيت»، «هاربيت»، يجب أن ألحق به.

– أجل. كان صوتها خاليا من التعبير، وتركز بصرها في الأرض فنظر إليها قائلا:

– «هاربيت»، لا تدعي هذا الأمر يقف بيننا...

www.rewity.com مـــر مـــور

– وما العلاقة التي تربطنا؟

– هذا ليس صحيحًا. والتفت ليحدق إلى سواد الليل، ثم نظر إليها قائلا:

– «هاربيت»، أرجوك دعيني أعود إليك...

– كلا.

– ماذا تقصدين بكلا؟

– أقصد كلا، يعني النفي. آه... اذهب يا «أندريه». اذهب واعثر على ابنك. ألا ترى أنني أرغب فقط في أن أترك وشأني؟

– أنت متوترة...

– كلا، كنت متوترة، والآن عاد إليَّ رشدي. اشكر «بول» بالنيابة عني. فلو لم يتدخل لكنت قد فقدت كل احترام لذاتي. تهدل كتفاه وبدا على وجهه التعب الشديد، وللحظة تحركت مشاعرها. لكن عندئذ تذكرت زوجته المسكينة والحالة التي كانت فيها.

لا شيء يغير ما حصل من قبل. كان الماضي يقف حائلا بينهما. وبما أنها لم تقدر أن تثق به سابقًا فكيف يمكنها أن تثق به الآن؟

- 9 -

قالت «سوزان» محتجة بامتعاض:

– لماذا علينا أن نعود إلى «إنجلترا»؟ أعلم أن ساقي تحتاج إلى وقت لتشفى إنما لماذا لا يكون هذا في «روشلاك»؟ كانت «هاربيت» تلف حول منعطف وشتمت بصمت حين أحست برجة فجائية في مبدل السرعة، ثم أجابتها:

– «سوزان»، قال الدكتور «شيرون» إن الاستحمام المنتظم ضروري، وأخشى أن أقول له إننا نستعمل الغدير أو ذلك المغطس الأثري البدائي الذي وجدته في الكوخ.

– لكن الحمام نظيف ويمكنني استعماله.

– كل يوم؟ ومن الذي سيحمل الماء إليه؟ كوني واقعية يا «سوزان»، هذا ليس معقولا. اعترضت «سوزان» قائلة:

– لكنك لم تذكري شيئًا عن ذلك يوم أمس. تنهدت «هاربيت» وأجابت:

– بالأمس كلانا لم يدرك أهمية الموضوع. الآن صرت قادرة على التفكير. أنا آسفة مثلك، إنما لا أجد حلا آخر. تنشقت «سوزان» الهواء وتمتمت وهي على وشك البكاء:

– تقصدين بيت جدتي، أليس كذلك؟ أنسيت أنه ليس لديَّ بيت أذهب إليه؟ استصغرت «هاربيت» نفسها وأوضحت:

– ليس عليك أن تذهبي إلى جدتك إن لم ترغبي في ذلك. بوسعك البقاء معي في الشقة على الأقل حتى يحين وقت العودة إلى المدرسة.

– أحقًا؟ هل أستطيع ذلك؟ أشرق وجه «سوزان» وتابعت:

– لا أمانع، أقصد أن هناك الكثير من الأشياء في «لندن»، أليس كذلك؟ إنني أعرج في الوقت الحاضر وسيكون الأمر أسهل. أجبرت «هاربيت» نفسها على الابتسام وهي تحاول أن تفهم ماذا ستعني لها العودة إلى «لندن». لم تنم في الليلة الماضية، وأحست هذا الصباح كأنها ميتة. لكن بعض مساحيق الوجه غطت الشحوب. عيناها فقط كانتا تفضحان عذاب أفكارها الممزقة.

أدركت أن ما كانت تفعله لم يكن سوى الأفضل. لقد عاشت ثماني سنوات دون «أندريه»، وستتعلم أن تعيش دونه مرة أخرى. ربما أحبها بطريقته الخاصة، فلا شك في أنه يأسف لما حصل لكن هناك أمورًا لا يصلحها حتى الزمن... من الأفضل الابتعاد الآن قبل أن تتدهور علاقتهما وتلقى نهايتها المحتومة.

ربما كان حادث «سوزان» داعي خير، على الأقل منحها عذرًا مقبولا للرحيل، وعند وصولها إلى «إنجلترا» ستتصل بالوكالة لتبيع البيت... سوف

www.rewity.com

تحزن لأنها تعلقت بأرضه وجدرانه وبرائحة الخزامى البرية الفائحة في أرجائه. إنها تتطلع إلى «إنجلترا» إلى «لندن» وإلى «تشارلز». لا شك في أنه سيندهش لغيابها لشهر واحد فقط لكنها تريد العودة إلى العمل لتشغل عقلها ويديها. بعد أن ركزتها خالتها في المقعد الطويل خارج مدخل البيت سألتها «سوزان»:

– متى تظنين أننا سنرحل؟ ثم نظرت إلى الشمس الساطعة وأردفت:

– ألن تندمي على هجرك كل هذا؟

– أحسبني سأجد شيئا عما قريب. أكدت «هاربيت» ثم أضافت:

– والآن، هل ستكونين على ما يرام إذا ذهبت لأحزم أمتعتنا؟

– لكنك لم تعلميني بموعد رحيلنا! تنهدت خالتها وأجابت:

– لا أعرف، ربما غدًا أو بعد غد. يجب أن أعلم الدكتور «شيرون» أولا ليعطيني ملفك للطبيب في «لندن». فعبست «سوزان» قائلة:

– ليتنا نبقى هنا! ألا تغيرين رأيك يا «هاربيت»؟

– كلا. كانت «هاربيت» حازمة بجوابها فتهدلت كتفا «سوزان» وأولتها ظهرها. توقعت «هاربيت» قدوم «أندريه» طيلة النهار، لكنه لم يأت مع حلول الظلام ذهبت لتنام وكان يساورها إحساس بالخيبة. ضربت وسادتها وقالت لنفسها: «يا إلهي! ماذا أريد بعد كل هذا؟ أنا التي طلبت منه أن ينصرف أكثر من مرة، ولم أتذمر لأنه فعل». لكنها تود أن تراه للمرة الأخيرة. فكرت بيأس، لكي تقول له إنها راحلة وتودعه، وبذلك تنتهي العلاقة بوضوح.

سافرتا بعد ظهر اليوم الثاني واتجهتا شمالا إلى الـ «هافر» وأمضيتا الليلة في استراحة على الطريق. وصلتا إلى الـ «هافر» في ساعة متأخرة من مساء اليوم التالي، ولحسن حظهما تمكنتا من تغيير الحجز. استغلتا حالة «سوزان» لتصعدا على متن المركب المزدحم، كما أن جاذبية «هاربيت» ساعدت على إقناع موظفي المرفأ. قضتا ليلتهما في فندق صغير وأبحرتا في الصباح لتصلا

«ساوث هامبتون» قبل الظهر. مغادرة السفينة أخذت وقتًا أطول، ووصلتا «لندن» عند الغروب. أحست «هاربيت» بالارتياح لأن الرحلة كانت طويلة ومرهقة، وتاقت إلى استعادة شيء من حياتها الطبيعية السابقة.

كانت شقتها في منطقة «نايتس بردج» الأنيقة، وكان الفضل لـ «تشارلز» أن حصلت عليها بإيجار معقول. على أي حال لم تكن تحب أن تسكن في أية منطقة أخرى من «لندن»، ويناسبها أن تكون على مرمى حجر من «هارودز». وجود «سوزان» في الشقة لأول مرة أثارها وقالت وهي تنظر إلى تحت من الطابق الرابع:

– ما أجمل هذه الساحة! اعترفت «هاربيت» بأنها تحب أناقة البناية الهادئة التي تسكنها وهي تقيم هنا منذ ثماني سنوات. تذكرت أهلها فنظرت إلى «سوزان» قائلة:

– يجب علينا الاتصال بجدتك. أجابت «سوزان»:

– هل يجب أن نفعل؟ ألا نستطيع تأجيل ذلك إلى أن تشفى ساقي؟ إن جدتي سريعة الانفعال وتقلق لأبسط الأشياء.

– حبيبتي، عليّ أن أخبر «تشارلز» بقدومنا، ولا أستطيع أن أخبر «تشارلز» دون أن أخبر أمي. جلست «سوزان» على الأريكة في قاعة الجلوس وأراحت ساقها على وسادة وأجابت:

– حسنًا، لكن لا تطلبي من الجدة أن تأتي إلى هنا فأنا لا أتحمل اهتمامها المفرط بالأمور. اتصلت «هاربيت» بـ «تشارلز» أولا فصاح فرحًا:

– «هاربيت»! كان جميلا أن تسمع صوته المنمق مع أنه بدا مندهشًا جدًا لعودتها.

– أين أنت؟

– في الشقة، عدت إلى البيت لكن «سوزان» متوعكة.

– ماذا تقصدين يا «هاربيت»؟ لماذا لست في «فرنسا» تتمتعين بالطقس

الجميل؟ أجابت وهي تنظر إلى الفتاة محاولة إخفاء مشاعرها:

– حصل لـ «سوزان» حادث بالمنجل. لقد جرحت ساقها. وكما تعرف لا يوجد حمام في البيت، واقترح الطبيب أن أنقلها إلى مكان تتوفر فيه أسباب الراحة.

– أوه يا «هاريت»! انزعج «تشارلز» ولم تفهم لماذا وقد حسبته سيفرح لعودتها... أجابته بصوت بادي الألم:

– لا بأس، سترتاح مني لأربعة أسابيع أخرى. «سوزان» تسكن معي هنا، وسنجد أشياء كثيرة تشغلنا. فصاح «تشارلز»:

– «هاريت»! «هاريت»! عَمَّ تتحدثين؟ لا نستطيع الكلام على الهاتف. ما مشاريعك ليوم غد؟

– سأرتاح، لقد أرهقتني قيادة السيارة لثلاثة أيام متواصلة.

– حسنًا، بعد غد يكون الأحد، ما رأيك لو تشاركانني الغداء؟

– يبدو عرضك شائقًا يا «تشارلز».

– رائع. تفضلا إلى بيتي، السيدة «ريتشي» ستكون سعيدة بتحضير الغداء. سأنتظركما في الثانية عشرة ليتسنى لنا الكلام قبل الطعام. فغمغمت «هاريت» بارتياب:

– كلامك فيه نذير شؤم. فضحك «تشارلز» وقال:

– إذن إلى اللقاء في يوم الأحد، قبلي «سوزان» بالنيابة عني وأوصيها أن تنتبه لنفسها في المستقبل. طال حديث السيدة «إنغرام» بالنسبة إلى حالة «سوزان». وكانت «هاريت» قد ذكرت ما حدث للفتاة ثلاث مرات. فانفعلت الجدة وسألت:

– لا أتصور أنك سمحت لفتاة بعمر «سوزان» أن تستعمل المنجل! أعادت هذه العبارة عدّة مرات و «هاريت» تحاول إقناعها دون جدوى بأنها لم تسمح لـ«سوزان» بذلك. وتابعت أمها تقول بإصرار:

– لا تحاولي التهرب. من الواضح أنها استعملت المنجل وكان من الجائز أن تقتل نفسها، هل تتصورين ذلك! ألا تظنين أنني تعذبت بما فيه الكفاية عندما قتلت والدتها... ووالدها أيضًا؟ أجابت «هاريت» وهي تنظر إلى «سوزان» بعطف:

– على أي حال إنها تتماثل للشفاء الآن.

– يجب أن تحضريها فورًا إلى هنا. من الواضح أنك لست مؤهلة لتحمل مسؤولية فتاة بعمرها. كنت أتردد بالسماح لها بالذهاب معك خصوصًا بعد... لم تكمل الجملة وتابعت:

– على أي حال، لك حياتك في «لندن» ووجود «سوزان» سيعوقك عنها.

– قلت يا أمي إنها تستطيع البقاء هنا... كانت «سوزان» تبدو غير مرتاحة وغير مدركة تمامًا لما يجري على الهاتف. وراحت تتوسل إلى خالتها بعينيها بألا تتأثر بكلام الجدة. ابتسمت «هاريت» محاولة التركيز في كلام أمها...

– ماذا ستفعل «سوزان» طول النهار في أثناء غيابك بالمتجر؟ هل يمكنها المشي أم أصبحت كسيحة؟ لا تستطيع البقاء وحدها في الشقة طيلة النهار. تنهدت «هاريت» قائلة:

– «سوزان» تستطيع التحرك يا أمي. إنها ليست كسيحة ولن تكون وحيدة طول النهار فأنا لن أباشر عملي قبل شهر من الآن، وإذا ذهبت إلى المتجر سيكون ذلك لوقت قصير.

– على أي حال لا يعجبني هذا وأنا متأكدة أنه لن يعجب والدك أيضًا. من الأفضل أن نزوركما لنرى «سوزان» ونسألها عن رأيها.

– طبعًا هذا يتوقف عليك.

– لا نستطيع المجيء غدًا لأننا ننتظر «أليس» والأولاد. إذن يوم الأحد.

– ذلك غير ممكن لأننا سنخرج إلى الغداء يوم الأحد.

– أنتما ستخرجان؟ مع من؟ من يعرف بعودتكما؟ أدركت «هاريت» أنها في

www.rewity.com

مأزق فقالت بسرعة:

– كان «تشارلز» هنا يقوم بتهوية البيت وطلب منا أن نتناول الغداء معه يوم الأحد. ابتسمت «سوزان»، ورفعت خالتها شعرها بتعب وقالت:

– هل هذا كل شيء يا أمي؟ استاءت السيدة «إنغرام» فأجابتها:

– تعلمين يا «هاربيت» أن والدك لا يحب القيادة بعد نهار عمل، وأنا لا أحب ركوب القطار.

– إني آسفة...

– بوسعك أن تتناولي الغداء في يوم آخر مع الرجل الذي يدعى «هوكني». أنت تفتعلين العوائق. كيف أعلم أنك تقولين الحقيقة؟ لا أصدق أنك وجدته في البيت عند قدومك. أجابت «هاربيت» ثانية:

– آسفة. وكانت حقًا آسفة لأن علاقتها بأهلها وخصوصًا بأمها لم تكن على ما يرام منذ حادثة «أندريه»...

أحست بالغرابة عندما استيقظت على صوت السيارات بدلا من صوت العصافير التي اعتادت تغريدها... وغريب أيضًا أن تستعمل إبريق القهوة الكهربائي بدلا من أن تضيء الغاز، وأن تستحم بالدوش بدلا من أن تغطس وجهها بالماء البارد كما كانت تفعل هناك. ومع أن الوضع مختلف فلم يخل من حسنات... التسوُّق، «بيرينز»، الخادمة التي سألت إن كان باستطاعتها أن تقوم بالتنظيف يوم الاثنين، وأغراضها الخاصة كقطع السيراميك التي اشتاقت إليها وأرادت تفقدها.

قضتا السبت بكسل، تلذذت «سوزان» بمشاهدة التليفزيون أما «هاربيت» فتصفحت الجرائد، وغسلت ثيابها المتسخة، وقرأت عن الإضرابات وارتفاع أسعار الأغذية إنما لم يحصل شيء خارج عن المعتاد في أثناء غيابهما.

كان منزل «تشارلز» في الطابق الأخير في بناء فيكتوري مستحدث. غرف واسعة وسقوف عالية ومجموعة الأنتيكات والأثاث، كل هذا أعطى نوعًا

من الراحة لمنزله. كان يسكن وحيدًا باستثناء قط أسود كبير، وقد لقبت «هاربيت» القط باسم «بيرسوس»؛ لأنه يستطيع القفز بين التحف دون أن يوقعها وكأنه مجنح.

استقبلتهما السيدة «ريتشي» وضحكت بقلق عندما رأت «سوزان» تعرج وهي تصعد الدرج متكئة على ذراع خالتها. أدخلتهما البهو الصغير الذي بدا أضيق لوجود صندوق أحضره «تشارلز» من «جوهانز برغ» قالت السيدة «ريتشي»:

– لماذا استعملت المنجل بدلا من المقص الأكثر سلامة وفعالية؟ فردت «هاربيت» بطول أناة:

– لم يكن هناك مقص. ثم ساعدت «سوزان» على خلع معطفها، ووضعت سترتها على الصندوق وهي تسأل:

– كيف حالك يا سيدة «ريتشي»؟ وكيف حال الروماتيزم؟ دخل «تشارلز» إلى الصالون ووجهه يعبر عن سعادته بلقاء «هاربيت». وقال:

– عزيزتي «هاربيت»، كيف حالك وكيف حال المريضة؟ أجابت «سوزان»:

– ساقي في تحسن مستمر. وجلست فورًا على مقعد مغطى بسجادة مطرزة وكأنها تكذب جوابها المتفائل.

الجلوس في صالون «تشارلز» مريح لأن النوافذ المفتوحة تسمح للهواء بالدخول. كان الطقس ثقيلا في الخارج، ولاحظت «تشارلز» ينظر إليها وهي تتكلم مع «سوزان». تساءلت لماذا يرغب في التحدث إليها؟ هل يريد التأكد أنها عادت سالمة؟ أم أن لدعوته معنى آخر؟ إنها معتادة دعوات «تشارلز»، وربما اليوم تخيلت أنه قلق عليها. طعام السيدة «ريتشي» كان لذيذًا. حساء وروستو ثم مهلبية تشتهر بها منطقة «يوركشاير». وقال «تشارلز»:

– طلبت من السيدة «ريتشي» أن تحضر هذه الأطباق لظني أنك ستتلذذين بغداء إنجليزي. سألته «هاربيت»:

– هل دعوتنا فقط لتناول الغداء؟ لم يجب «تشارلز» لكنه نظر إليها على غير

عادته مضطربًا. لم تنتبه «سوزان» لما جرى لأنها كانت تلعب مع القط على السجادة. اقترح «تشارلز» أن يكلمها على انفراد فدخلا غرفة المكتب، وبادرته «هاربيت» بالسؤال:

– ما الأمر؟ لماذا تتصرف بهذه الغرابة؟ ماذا جرى في أثناء غيابي؟ أجابها:

– لم يحدث شيء، تفضلي بالجلوس هنا قرب المكتب فأنت تثيرين أعصابي بخطواتك القلقة. فردت بنفاد صبر وهي تجلس قبالته:

– أنت الذي تثير أعصابي، ماذا يجري؟ ما الأمر؟ لماذا أردت الكلام معي؟

تنهد «تشارلز» وقال:

– هل تمتعت بعطلة سعيدة؟ كيف كان رب البيت؟

– «تشارلز»!

– ابنتي العزيزة، لم آت بك إلى هنا للاستجواب. أستطيع أن أدعو مساعدتي إلى الغداء دون... قاطعته «هاربيت» بخشونة:

– البيت على ما يرام، لكن المالك لم يعرف أنه بيع، وبالطبع كان يحتاج إلى بعض التصليحات. هز «تشارلز» رأسه بأسف وسأل:

– هل كانت حاله سيئة؟

– لقد تدبرنا الأمر.

– وهل ستعودين؟ كان يريد أن يعرف وفهمت أنه يخبئ شيئًا، فردت بصوت أجوف:

– لن أعود وسأبيع البيت إلى «أندريه» إن أراد ذلك. نظرت إلى «تشارلز» بتمعن وأحست أن شكوكها في محلها، فـ «تشارلز» يدري أن «أندريه» يعيش في «روشلاك» وسواء علم أو لم يعلم أنه يملك البيت، فلم يصدم عندما سمعها تلفظ اسم «أندريه». واجه نظرتها المتهمة وقال:

– حسنًا، كنت أعرف أن «لاروش» يسكن المنطقة. لكنني لم أعرف أنه يملك البيت، صدقيني. أظن أنك التقيت به ثانية. ماذا حدث؟ تنفست «هاربيت»

بغضب وأجابته:

– إنك تجلس هنا وتجرؤ على القول إن «أندريه» يسكن قرب «روشلاك»، وتنتظر مني أن أخبرك بما حدث! يا لأعصابك القوية! انحنى «تشارلز» ليربت يدها إلا أنها ابتعدت عنه فقال بأسى:

– «هاربيت»، لا تغضبي. فعلت فقط ما كان عليَّ أن أفعله.

– فعلت الذي خيل إليك أنه صواب! لو أردت يا «تشارلز» أن تؤذيني عمدًا لما وجدت طريقة أفضل.

– لأنك لا تزالين تهتمين به؟ إنني أعلم، لكن يا «هاربيت»... فوقفت تقول:

– من الأفضل أن نذهب الآن قبل أن أقول شيئًا أندم عليه.

– كلا انتظري، لا تذهبي، اسمعيني من فضلك: توقفت «هاربيت» وقالت:

– لا فائدة يا «تشارلز».

– أرجوك، اجلسي.

– لماذا؟ ماذا لديك من كلام؟ هز رأسه وقال:

– عليك أن تسمعي ما أود قوله قبل أن تسارعي إلى استنتاجات خاطئة. ترددت «هاربيت» وقالت:

– أوه، «تشارلز»...

– أرجوك يا «هاربيت» ألا تريدين أن تسمعي ما عندي؟

– ماذا عندك لتقوله؟ تنهد «تشارلز» قائلا:

– اجلسي. تنفست بعمق وعادت تجلس قائلة:

– حسنًا لكنك تضيع وقتك. فلن تحصل مصالحة كبيرة بيني وبين «أندريه»، ولا أحسبك تريد ذلك. فنظر إليها بعينين مفعمتين بالحنان وقال أخيرًا:

– «هاربيت»، لا تتظاهري معي يا عزيزتي فأنا أعرفك منذ وقت طويل. هل سيختلف الأمر لو قلت لك إن «أندريه» كتب لي رسالة خاصة؟

www.rewity.com

- 10 -

ران على الغرفة صمت كثيف استطاعت «هاربيت» أن تسمع فيه دقات الساعة الفرنسية النحاسية التي تزين رف الموقد... أم أنها خفقات قلبها تدوي في أذنيها؟ وقالت أخيرًا وهي تحدق إلى «تشارلز» بذهول:

– ماذا قلت؟ إن «أندريه» كتب إليك؟ متى؟ ربت «تشارلز» كتفها ورفع ساقه على حافة المكتب وأخذ يهز قدمه قائلا:

– منذ ستة أشهر تقريبًا. بعد عيد الميلاد، في وقت معرض آل «جانينغ»...

– أوه، لا تبال بمعرض «جانينغ»، لماذا لم تخبرني؟ قل لي، لماذا كتب إليك؟ فشبك يديه وقال:

– كانت زوجته قد ماتت لتوها. هل عرفت ذلك؟ أومأت «هاربيت»:

– أجل، لقد أخبرني. بدت الدهشة على «تشارلز» وسألها:

– لكن ذلك لم يعن لك أي شيء؟ رفعت رأسها وقالت بارتجاف:

– عنى لي فقط أنه كان يجتمع بي بينما زوجته تعاني مرضًا عضالا. فردد قائلا:

– مرضًا عضالا! ألا تعرفين ما هو؟

– كلا. ولا أريد أن أعرف... «تشارلز»، إلى ماذا يقود كل هذا؟ هل تريد القول إنه كان يعلم أنني كنت سأشتري البيت؟

– كلا، كلا، من الأفضل أن تقولي لي ثانية كيف التقيت بـ «أندريه»؟

– لماذا؟

– أحب أن أعرف.

– إن كان لابد من أن تعرف، كان «أندريه» في البيت يوم وصولنا. لقد علم أن المنزل قد بيع وبدأ بتنظيفه.

– هل صدم حين رآك؟ عبست «هاربيت» وأجابت:

– أعتقد أنني صدمت أكثر... لكن هذا شيء طبيعي، إذ لم أكن أعلم أنه كان يراسلك.

– تابعي، ماذا حصل؟

– عرض أن يرد لي ثمن البيت، لم يسعه أن يفعل أكثر من ذلك لأن البيت بحالة يرثى لها.

– لكنك لم تقبلي؟ تورد وجهها وأجابت:

– كلا، ليس من أجله لكن من أجل «سوزان». ولم يكن لديَّ الوقت لأجد بيتًا آخر...

– إذن بقيت.

– أجل، حتى أصيبت «سوزان» بالحادثة. استوعب كلامها مفكرًا وعاد يسألها:

– هل رأيت «لاروش» ثانية؟ لابد من أنك رأيته. فهتفت غاضبة:

– لماذا تفترض ذلك؟

– لأن من المستبعد أن ينبئك بوفاة زوجته فور التقائه بك، أم تراه فعل؟ خفضت بصرها وأجابت:

– كلا. التقينا عدة مرات بعد ذلك.

– فهمت.

– في الواقع، هو الذي ساعدني على نقل «سوزان» إلى المستشفى لدى إصابتها وكان لطيفًا جدًا. نظر «تشارلز» إلى رأسها المطأطئ وسأل:

– لكنك لا تفكرين الآن في لقائه ثانية؟

– كلا.

– ولماذا؟

– «تشارلز»، أنت رب عملي لكنك لست المسؤول عني، ثم إني كنت أحسب دائمًا أنك غير راض عنه. تنهد «تشارلز» وقال:

www.rewity.com

– لم أوافق حتى رأيت ما حل بك.

– ماذا تقصد؟ انحنى إلى الأمام وأخذ يدها قائلا:

– يا بنتي، لا تغضبي، فأنت تعلمين مثلما أعلم أنك أصبحت صاحبة مهنة بالدرجة الأولى.

– وما العيب في ذلك؟

– لا شيء، لكنك لا تتصرفين بشكل طبيعي. لا تخرجين بما فيه الكفاية، والعمل هو هدفك الرئيسي في الحياة... لا تسمحين لأي رجل بأن يقترب منك. أرادت «هاريت» أن تبتعد عنه لكنه بقي ممسكًا بيدها. حدقت إليه بنظرة دفاعية وقالت بارتباك:

– الذي تقصده يا «تشارلز»، هو أنني كبرت ولم أعد تلك الطفلة الصغيرة السهلة التأثر. فأجابها بحزم:

– لقد تقوقعت داخل صدفة، هذا كل شيء، تظنين أن بإمكانك الهروب من الحياة؟ لا، أنت لا تستطيعين ذلك وعليك أن تدركي هذه الحقيقة سريعًا.

– أهذا ما قاله «أندريه»؟

– كلا، كلا، بالطبع لا. قلت لك ما قاله «أندريه». إن زوجته توفيت وسأل عن أحوالك وإن كنت سعيدة. ولم أجبه. وشهقت مستغربة:

– لم تجبه؟

– كلا، ما كان عساي أن أقول؟ إنك تهدرين حياتك؟ أو أخفي الحقيقة وأقول له إنك فتاة سعيدة وراضية؟

– إنني سعيدة وراضية، على الأقل كنت كذلك.

– كنت تعيشين في عزلة. ونهض «تشارلز» فأجابت:

– لديّ أصدقاء.

– ليسوا مقربين ما عداي. إني أعتبر نفسي صديقك مهما حدث.

– لذلك قررت أن ترسلني إلى «فرنسا»...

– بعدما كتب لي «لاروش»، قررت أن أفعل شيئًا. عرفت أنك تحبين «فرنسا» خصوصًا بعد الرحلة إلى «ليموج». فبدأت اتصالاتي لشراء عقار في الـ«دردون». ثم أقنعتك بذلك، وقبلت بشغف. ثم قُتلت أختك وزوجها وأنت تعرفين ما حدث بعد ذلك. هزت «هاريت» برأسها وكأنها لا تصدق، وغمغمت:

– المصادفات لا تحصل دائمًا.

– كانت مصادفة أن يكون «أندريه» صاحب العقار الذي اخترته.

– ظننت هكذا. وتنهدت «هاريت» عندما سألها «تشارلز»:

– كيف يبدو «أندريه»؟ فارتعدت وأجابت:

– أكبر، أقسى.

– أقوى؟

– ربما هكذا. قال «تشارلز»:

– مضت عليه أوقات قاسية كفيلة بتغيير مظهره. رددت «هاريت»:

– أجل، وزوجته قاست الكثير. قطب «تشارلز» حاجبيه وتابع:

– فواتير المستشفى تتطلب مالا كثيرًا، واضطر إلى إحضاره من مكان ما.

في اليوم الذي التقيناه في صالة المزاد في «سان جرمان»، كان يبيع بعض الأواني الفضية لآل «روش فورت» أظن أنهم خسروا كل شيء وكانت لديهم أشياء ثمينة جدًا... تغيرت أحواله من الغنى إلى الفقر المدقع. أجابت «هاريت»:

– لا تحاول أن تجعلني أشفق عليه! لم يكن في يد زوجته حيلة.

– كلا و «أندريه» لم يستطع عمل شيء لأن زوجته أمضت آخر اثنتي عشرة سنة من حياتها في مستشفى للأمراض العقلية.

– ماذا؟ لحسن الحظ كانت «هاريت» جالسة حين سمعت هذا النبأ، وسألته بوجل:

– ماذا تقول يا «تشارلز»؟

– أقول إن زوجة «لاروش» كانت مصابة بمرض عقلي. عندما تزوجها كانت

www.rewity.com

تشكو من الهستيريا، وحرم عليها أن تنجب أطفالا. لم تستعد رشدها بعد أن أنجبت ولدها. قالت «هارييت» متحسرة:

– من المؤكد أن «أندريه» لم يخبرك بكل هذا.

– كلا، أخبرني فقط بوفاة زوجته في المستشفى بعد مرض طويل. فضولي دفعني إلى الاستقصاء. عائلة «روش فورت» ليست مجهولة في «فرنسا». خبأت وجهها بين يديها وقالت:

– يا إلهي. فسرت كلمات «تشارلز» بأشياء كثيرة، وخصوصًا الرسالة التي تسلمتها من «أندريه» بعد عودتها من «باريس»، وفيها يعلمها بأدب أنه لا يستطيع الزواج بها لأنه كان متزوجًا ولا يستطيع الطلاق. لف «تشارلز» ذراعه حولها وقال بحنان:

– آسف يا عزيزتي، إنما كان عليّ أن أخبرك، فمن حقك أن تعرفي. رفعت «هارييت» وجهًا حزينًا وقالت:

– ماذا أستطيع أن أفعل؟ لم أعرف، لم أفهم. ظننت... ليتني كنت أعلم...

– أجل لكن ما كان بإمكانك فعله؟ ارتجفت شفتاها وهمست:

– لا أعلم. لا أعلم. أضاف «تشارلز»:

– يا للرجل المسكين! أخذ أكثر من نصيبه من التعاسة فقالت بزفرة حارة:

– إنه يعتقد أنني أكرهه.

– وهل تكرهينه حقًا؟ هزت رأسها:

– لقد حاولت. ظننت أنني أكرهه لكن حين رأيته...

– أدركت أنك لا تستطيعين؟ أومأت قائلة:

– أنا أحبه يا «تشارلز». وأعتقد أنني أحببته طيلة الوقت.

– هل يحبك هو أيضًا؟ حدقت أمامها وقالت:

– لا أعرف، على كل حال فات الأوان.

– لماذا؟

– أوه يا «تشارلز»، لا يستطيع المرء أن يفتح ويقفل عواطفه وكأنها حنفية ماء. لو عرفت ربما اختلف الأمر.

– إذن هي غلطتي. كان يجب أن أخبرك.

– لا تتغابى. نظرت إليه من خلال دموعها وأكملت:

– ليس من المفروض أن تعلم. كان على «أندريه» أن يخبرني بنفسه. طرقة على الباب أنهت المحادثة. أطلت «سوزان» ونظرت باهتمام عندما شاهدت «هارييت» تبكي. وهتفت:

– ما الأمر؟ هل أنت غاضب من «هارييت» يا سيد «هوكني»؟

– كلا، كلا، كلا. تقدم «تشارلز» إلى الفتاة ليعطي «هارييت» الوقت الكافي لتهدأ وقال لها موضحًا:

– كنا نتكلم عن صديق لنا واجه حظًا سيئًا جدًا في الآونة الأخيرة. فحزنت خالتك. ذهبت «هارييت» إلى المتجر صباح الاثنين بعدما تأكدت أن «سوزان» ستكون على ما يرام في أثناء غيابها لساعات، وهي تلهو بلعبة إعادة تركيب الرسوم المقطعة التي أعارها إياها «تشارلز». رن الجرس الصغير عندما فتحت «هارييت» الباب، وأتى «تشارلز» بنفسه ليستقبلها هاتفًا:

– «هارييت»! لم أتوقع قدومك اليوم. أقفلت الباب وراءها وقالت:

– أجل، أعلم أنك لم تتوقع قدومي. لكن ساق «سوزان» المقطبة تمنعنا من القيام بأي نشاط. لذلك أفضل العمل على الجلوس في البيت. فهم «تشارلز» قصدها لكنه لم يعلق. كانت «هارييت» مسرورة، فكفى ما دار بالأمس من مصارحة، أما اليوم فتريد أن تمسك بحبل حياتها، وتحاول أن تنسى الذي جرى. إنها لا تستطيع العودة إلى «أندريه» بعد الطريقة التي عاملته بها، ومن المستحيل أن يعود هو إليها.

اتصلت والدتها مساء الاثنين للاطمئنان على «سوزان» وتكلمت معها ولم

تحرص «سوزان» على عدم تكدير جدتها، لأنها طفلة ويسمح لها بأكثر مما يسمح للبالغين. وحين انتهت المكالمة بدت «سوزان» قلقة فنظرت إليها «هاريت» بفضول لكن الفتاة اكتفت بالتنهد وجلست في مكانها على الأريكة. فسألتها خالتها وقد أصبحت على دراية أكبر بمزاجها الحساس:

– ما الذي حدث؟ اتكأت الطفلة على الوسادة وأجابت بتجهم:

– لا شيء. لكن «هاريت» لم تصدقها وسألتها:

– هيا، خبريني، ماذا قالت جدتك؟ فغصت بريقها وردت:

– لم تقل إلا القليل. ثم تهدل كتفاها وأردفت:

– هل بإمكاننا زيارة جدتي؟ إنها قلقة جدًا على ساقي. نظرت إليها خالتها متعجبة وقالت:

– هل ترغبين في الذهاب إلى «غيلفورد»؟ توردت الفتاة وقالت:

– ليوم واحد فقط، نستطيع احتماله؟ أقصد، ألا ترغبين في مشاهدة والدتك؟

حاولت «هاريت» أن تكون صبورة وسألتها:

– هل تشعرين بالضجر هنا؟ أهذا ما يقلقك؟ إن كان ما أقوله صحيحًا فتكلمي يا حبيبتي. إنني أفهم أنك لا تتمتعين بالعطلة لكن حتى تشفى ساقك لا نستطيع عمل شيء. هزت «سوزان» رأسها قائلة:

– لا أحس بالضجر، إني أحب هذا المكان. لكن جدتي قالت إنها اشترت لي هدية. بدأت «هاريت» تفهم سبب قلقها وسألت:

– لماذا لم تقولي ذلك منذ البداية؟ بدت «سوزان» مرتبكة وغمغمت أخيرًا:

– إنه كلب. ذهلت «هاريت» وكررت:

– كلب! من كان يظن حصول هذا!

– ماذا تقصدين يا خالتي؟

– جدتك لم تسمح أبدًا للحيوانات بدخول البيت لكن من الواضح أنها كسرت القاعدة من أجلك. فهتفت «سوزان» بانفعال:

– إنه أمر سار. أليس كذلك؟ سأصطحبه في نزهات، وجدتي تقول إنه بإمكاني أن أدربه بنفسي عندما أتعافى. هل بإمكاني تربيته هنا؟

– كلا إذ لا يُسمح بتربية الكلاب في الشقق، وجدتك تعلم هذا. عبست «سوزان» قائلة:

– يا إلهي! لن تقبل جدتي أن تعتني بالكلب لمدة شهر.

– كان عليها أن تأتي به في آخر الفصل. أجابت الصغيرة:

– لكنها ظنت أن لديَّ متسعًا من الوقت في العطلة لكي أدربه. نهضت «هاريت» وقالت:

– والآن، ما العمل؟ تنهدت «سوزان» بكآبة وحزنت خالتها لحالها، لم تكن غلطتها فالسيدة «إنغرام» تعمل ما يحلو لها. قالت لابنة أختها:

– من الأفضل أن تعودي إلى بيت جدتك. إنها على حق فأنت تستطيعين تدريب الكلب في أثناء العطلة. ردت «سوزان» بارتياح:

– هل حقيقة تعتقدين ذلك؟ لا أريد أن أتركك.

– لا تقولي هذا يا حبيبتي. لقد نلت إجازتي والآن من الأفضل أن أعود إلى العمل. اذهبي أنت وتمتعي بهديتك.

لم يكن النهار الذي قضته عند أهلها في «غيلفورد» نهارًا بسيطًا. أخذت «هاريت» ملف «سوزان» الطبي لتعطيه للطبيب هناك، وكان عليها أن توضح كيفية تنظيف الجرح لوالدتها التي صعقت عندما رأت المنظر وهتفت:

– يا للبنية المسكينة! وعطفها المتزايد كاد يحمل «سوزان» على البكاء. أما الجرو فكان متعة للعين وأحست «هاريت» بالارتياح في طريق عودتها بعدما تركت «سوزان» وهي تلاعب الكلب قرب المدفأة.

لم تبق «سوزان» عند «هاريت» لوقت طويل حتى تعتادها. وبعد أيام عادت إلى روتين حياتها، إنما لم تستطع أن تنام جيدًا ولا أن تأكل بشهية، وفي أوقات يقظتها لم يساورها إلا فكر واحد هو أنها قضت على أملها الوحيد في

www.rewity.com

إيجاد السعادة. ولو استطاعت أن تعيش الأسابيع الماضية في «فرنسا» ثانية، وهي تعلم ما قاله لها «تشارلز»، لاختلف الأمر تمامًا. في بعض الأوقات كانت تفكر في العودة إلى «روشلاك». لم تطلب بعد من الوكيل بيع البيت. وتصورت دهشة «أندريه» لو علم أنها تعيش فيه مرة ثانية. لكن عندما تتصور أنه من الممكن أن يعاملها كما عاملته هي، كانت ترفض أن يحدث ذلك. لا جدوى، فهي لا تملك الشجاعة الكافية للعودة وعلى طلب ما كانت ترفض الحصول عليه.

وفي أحد الأيام حصل شيء غير متوقع. كانت تلبي طلبات أحد الزبائن، عندما فتح الباب ودخل «بول لاروش». نظرت صوبه واتسعت عيناها من الدهشة والخوف عندما رأته. كان يرتدي بنطلون جينز وقميصًا رثًّا، لايختلف عن أي شاب تراه في الطريق. لكنه لا يشبه بالتأكيد الزبائن الذين يترددون على المتجر. كان «تشارلز» يعلم أن «هارييت» مشغولة فأتى من الغرفة الخلفية ثم عبس عندما شاهد الصبي. وقال له:

– نعم؟ كانت «هارييت» تحاول التركيز في العمل بين يديها لكنها سمعت اللهجة الرادعة في صوت «تشارلز» فأيقنت أنه سيتخلص من الشاب. استأذنت الزبون الذي كان يتأمل شمعدانًا أثريًّا ووقفت بين الرجلين. نظر إليها «تشارلز» بصبر نافد فقالت له بسرعة:

– هل تعرف ابن «أندريه» يا «تشارلز»؟ بدا «تشارلز» مندهشًا فاستدارت «هارييت» نحو «بول» ولاحظت كم فقد الصبي من وزنه ومن غطرسته السابقة، وربما المشهد الذي رآه بينها وبين والده قد غير مشاعره تجاهها. وخاطبته بعفوية:

– هل تبحث عني؟ وتساءلت بخوف إن كان حصل شيء لـ «أندريه»، فأجابها «بول»:

– أجل. وابتسم لـ «تشارلز» الذي كان يستعيد رشده، ثم ركز اهتمامه في

«هارييت» وقال لها:

– هل بإمكاني أن أتكلم إليك؟ فقال «تشارلز»:

– بإمكانكما استعمال مكتبي. لكن «هارييت» لاحظت اضطراب «بول» فقالت لـ «تشارلز»:

– بل سنذهب لنتناول بعض القهوة. وشدت ذراع «تشارلز» وهي تمر به ليفهم ثم تبعت «بول» إلى الخارج. كان النهار مشمسًا فمشيا في اتجاه الحديقة العامة. اقترحت «هارييت» أن يشتريا بعض الكعك والعصير. التهم «بول» الكعكة كأنه يموت جوعًا، فأحست بالألم وهي تراقبه وسألته:

– متى تناولت الطعام آخر مرة؟ فاحمر وجه الشاب وأجاب:

– يوم أمس. تنهدت وأعطته كعكتها التي أكلها بالطريقة نفسها. جلسا على مقعد في الحديقة وأدارت «هارييت» نحوه نظرات متسائلة وقالت:

– ماذا تفعل في «لندن»؟ فتح «بول» علبة العصير قبل أن يجيب:

– لقد هربت. فصاحت به:

– ماذا؟ ولماذا فعلت هذا؟

– هربت منذ عشرة أيام تقريبًا وفي تلك الليلة التي وجدتك مع أبي. حدقت إليه بانذهال وهمست:

– أوه، كلا! لكن يا «بول»...

– لا تغضبي ولا تلومي نفسك. كان عليَّ أن أصدق... لكنني هربت... شرب بعض العصير وكانت «هارييت» تفكر فيما ستفعله فسألته:

– هل يعلم والدك أين أنت؟ هز رأسه قائلا:

– لا أظن.

– إذن فهو مشغول عليك إلى حد الجنون.

– أجل. بدا «بول» جادًّا فانفجرت تهتف بتذمر:

– ألا تبالي؟ فرد عليها بصدق:

– وهل تبالين أنت؟ عندها احمر وجهها وقالت:

– إننا لا نتكلم عني.

– بل نفعل، لأنك هربت أيضًا. أليس كذلك؟ فحدقت إليه وسألته:

– كيف عرفت أنني عدت إلى «لندن»؟

– لأنني لم أجدك في البيت. وأين ستكونين إذن؟ تملكتها الحيرة فسألته ثانية:

– وضح لي من فضلك، ماذا كنت تفعل في البيت؟ تنهد «بول» وقال:

– حسنًا، قضيت الليلة في القصر عندما شاهدتكما معًا لأنني عرفت أن والدي لن يبحث عني هناك وكان يلزمني وقت للتفكير. في اليوم التالي ذهبت إلى عمتي في «سارلات». لم تشك في أمري لكنني فهمت أنني لا أستطيع البقاء طويلا. فعدت إلى «روشلاك» لأنني أردت مشاهدتك والتحدث إليك. ولما لم أجدك هناك قررت السفر إلى «لندن». هزت «هاربيت» رأسها وكأنها لا تصدق وقالت:

– وهل لديك جواز سفر؟ فهز رأسه نفيًا:

– إذن كيف كنت تعيش؟

– استدنت بعض النقود من عمتي، وبواسطة النقل المجاني وصلت إلى «ديجون» في سيارة شحن، ثم اختبأت في المركب إلى هنا. كان يبدو فخورًا بما فعل لكن «هاربيت» ارتعبت وشحب وجهها مما جعل «بول» يسألها عن السبب فطمأنته قائلة:

– إنني بخير لكن كيف تتصور حالة أبيك الآن؟ فأحنى كتفيه ولاحظت كم ضمرتا عن السابق. أجابها:

– لست أدري، ربما هو لا يبالي.

– أنت تعلم أن ما تقوله ليس الحقيقة، فهو تبعك في تلك الليلة ليحاول أن يشرح لك الأمور... وفهمت لماذا لم يعد «أندريه» إليها... تنهد «بول» ثم

سأل:

– وأنت لماذا هربت؟ فقالت تنكر الحقيقة وهي تعلم أنها تنكرها:

– أنا ما هربت بل جئت بـ «سوزان» إلى بيتي هنا.

– لكن والدي يهتم بك، أليس كذلك؟ هل تبادلينه نفس الشعور؟ بدت خائرة القوى وقالت بصراحة:

– أجل أبادله الشعور ذاته. هل هذا ما أردت سماعه؟ قطب «بول» حاجبيه قائلا:

– كنت أرغب دائمًا في المجيء إلى «لندن»، لكن والدي لم يسمح لي أبدًا. لقد اتخذتك عذرًا.

– فهمت.

– أما الآن فأريد العودة إلى البيت. أخفت ارتياحها وسألته:

– كيف وجدتني يا «بول»؟

– وجدت اسم والدتك في دليل التليفون واستعملت آخر نقودي لأتصل بك. لكن امرأة أخرى ردت عليّ تدعى السيدة «بيرينز»، أعطتني عنوانك هنا، فجئتك كما ترين. تنهدت «هاربيت» قائلة:

– أوه، «بول»!

– كانت مغامرة شائقة، أليس كذلك؟

– كيف سأعيدك إلى «فرنسا» وأنت لا تملك جواز سفر؟ نظر إليها «بول» متوسلا وقال:

– ستجدين طريقة، إنني واثق بذلك. وتساءلت «هاربيت»، هل جاء إلى «لندن» لمقابلتها أم لكسب عطفها؟ لكنه أراد أن يأتي إلى «لندن» وربما لم تعجبه. على كل حال، إنها مدينة لـ «أندريه» بإعادة ابنه إلى البيت، والشخص الوحيد الذي يمكنه إيجاد طريقة هو «تشارلز».

www.rewity.com

- 11 -

تركت «هاربيت» منزل «تشارلز» في وقت متأخر، حيث أمضت أمسية طويلة مع «بول» بينما كان «تشارلز» يتصل ببعض الأصدقاء في وزارة الخارجية ويحاول تفسير الأمور للمراجع المختصة. تقرر سفر «بول» صبيحة اليوم التالي على متن طائرة ثم يستقل سيارة تنتظره في المطار لتأخذه إلى البيت. طلب «تشارلز» من الشاب أن يقضي الليلة عنده، الأمر الذي أراح «هاربيت». وعلى الرغم من ذلك أحست بالإرهاق عندما وصلت إلى شقتها. ثم رأت سيارة والدها متوقفة أمام البناء ففكرت في إعياء، ماذا الآن، ماذا يفعل هنا في هذه الساعة المتأخرة؟

لم يكن في السيارة وأدركت أن حارس البناية قد أدخله إلى الشقة. استقلت المصعد وعندما وصلت إلى الممر، رأت في الظلام رجلا متكئًا على الحائط. كتمت صرخة خوف. لكن حتى في الظلام عرفت أنه «أندريه». ونظرت إليه بشغف. فقال لها:

– لقد تأخرت. كلماته الباردة أعادتها إلى الواقع فاحمر وجهها. ماذا يفعل هنا؟ هل أتى باحثًا عن «بول»؟ وإن فعل لماذا يفترض أنها تعلم شيئا عن الموضوع؟ بحثت في حقيبتها عن المفتاح وفتحت الباب ودعت «أندريه» إلى الدخول. سبقته إلى البهو لتضيء النور. تبعها إليه ومن ثم إلى غرفة الجلوس حيث نزعت سترتها. كانت متضايقة لأن شعرها مبعثر وعلى كم قميصها الحريري بقعة دهان. أما «أندريه» فكان يرتدي بزة رمادية في غاية النظافة، ويبدو مرهقًا ومنشغل البال. قالت له بصوت أعلى قليلا من المعتاد:

– أظنك تبحث عن «بول». ثم ارتعدت عندما اجتاز الغرفة في اتجاهها وهزها من كتفيها قائلا بوجوم:

– «بول»! هل رأيت «بول»؟ كانت عيناه تلمعان ببريق غريب وأحست هي

بحيرة شديدة فردت متلعثمة:

– أنا... أجل لقد رأيته.

– ولم تفكري في أن تعلميني بذلك؟ تركها بخشونة فجائية كادت تفقدها توازنها وأردف:

– ولماذا تتصلين بي مادام الأمر لا يهمك، أليس كذلك؟ نظرت إليه بخواء ومدت يدها لتمنعه من الانصراف وقالت:

– انتظر يا «أندريه»، لم يكن عندي وقت لأعلمك. رأيته لأول مرة اليوم.

– ماذا؟ واستدار ليحدق إليها غير مصدق كلامها فتملكها الارتباك وأجابت بصدق:

– هذا صحيح، أقسم لك. لقد أتى إلى المتجر صباح اليوم. تنفس «أندريه» بصعوبة وقال وهو يمرر أصابعه المرتجفة في شعره:

– لقد فتشت عنه في كل مكان. يا إلهي! كيف أتى إلى «لندن»؟ فأخبرته «هاربيت» قائلة:

– أتى إلى «ديجون» ثم اختبأ في المركب.

– يا إلهي! وأين هو الآن؟

– إنه يقضي الليل عند «تشارلز».

– «هوكني»؟

– نعم. وحركت كتفيها متابعة:

– لقد جئت لتوي من هناك، هذا سبب تأخيري.

– وهل هو على ما يرام؟

– «بول»؟ أجل إنه يرغب في العودة إلى البيت. وقد اهتم «تشارلز» بالترتيبات اللازمة لذلك. كان «أندريه» كأنه لا يصدق ما يسمع، فأشارت «هاربيت» نحو المقعد وهي تتساءل، إذا لم يأت «أندريه» إلى هنا بحثًا عن «بول»، إذن لماذا أتى؟ وغمغمت بلطف:

www.rewity.com

– أرجوك يا «أندريه»، تفضل بالجلوس، سأحضر القهوة. هز رأسه كأنه دائخ وقال وهو يتقدم خطوة إليها:

– يجب عليَّ أن أعتذر... لكن «هاربيت» أسكتته قائلة:

– لا حاجة...

– حسنًا. اعذريني إن كنت قد روعتك، لكن هذا الأسبوع كان رهيبًا. لاحظت الألم في عينيه عندما تابع قائلا:

– أولا «بول»، ثم أنت! أعجب كيف لم أفقد عقلي بعد! فردت بصوت مرتجف:

– أوه، يا «أندريه»، ماذا تفعل هنا؟

– يجب أن تفهمي أن الوقت متأخر وأني متعب، لكن كان عليَّ أن أراك. لقد انتظرتك ساعتين تقريبا. فشدت على خصلة من شعرها بشرود وسألته:

– السيارة التي تقف في الخارج، أهي سيارة والدي؟

– أجل، لكن لا تطلبي مني أن أشرح لك... ليس الآن، دعيني فقط أنظر إليك. اسودت عيناه، وأحست بضعف في ركبتيها وهي تلفظ اسمه باحتجاج إنما لا شيء استطاع ردعها عن لمس وجهه المرهق. قال وهو يتنفس بعنف:

– لقد تركتني أكثر من مرة، فلماذا أستمر في العودة؟ بللت «هاربيت» شفتيها بلسانها وهمست:

– قل لي أنت السبب.

– لقد كتبت لـ «تشارلز». ألم يخبرك؟ لكنه لم يجب فاعتقدت أنك قد تزوجت فروضت نفسي على الفكرة، إلى أن ظهرت مجددًا كملاك منتقم وحطمت راحتي النفسية إلى الأبد.

– أوه «أندريه»، يجب أن تصفح عني.

– أسامحك، لماذا؟ هز رأسه بمرارة وتابع:

– لأنك تركتني عندما كنت في أمس الحاجة إليك؟ ارتجفت «هاربيت»

وقالت:

– لم أستطع إعلامك.

– لقد تسلمت رسالتي وكان باستطاعتك إجابتي عبر صالة المزاد.

– «أندريه»، كنت متزوجًا! وقلت إن لا مجال للطلاق.

– اللعنة! إنني أعلم، أعلم... لكن كان عليك أن تفهميني أن الحالة لم تكن حسبما تظنين. أعلم أنك تتصورين أنني أسأت معاملة زوجتي، ربما أنت على حق لكنها لم تعلم. استدار فجأة وتابع وهو يمس عنقه بيده المتعبة:

– كانت مريضة. تعاني مرضًا عقليًا. وقضت آخر اثنتي عشرة سنة من حياتها في مستشفى للأمراض العقلية.

– إنني أعلم. فنظر إليها مستغربًا وقال:

– تعلمين!

– قام «تشارلز» بالاستقصاءات اللازمة بعدما كتبت إليه.

– إذن عرفت! بدا على وجهه عذاب مرير فسارعت إلى القول:

– عرفت هذا منذ بضعة أيام فقط. تقدمت إليه بشوق وأضافت:

– «أندريه»، «أندريه» تصورت أنك لا تهتم، إنك لن تهتم أبدًا. فغمغم وهو يمرر أصابعه في شعرها:

– كنت فتاة صغيرة وجميلة، فلم أسمح لنفسي بأن أطلب منك هدر شبابك في انتظاري.

– وأي هدر هذا، ليتك أعلمتني! تنهد «أندريه»:

– لم أستطع ذلك، إذ لو أخبرتك لصممت ربما على انتظاري، ولربما أضجرك الانتظار، وما كنت لأطيق ذلك.

– أوه «أندريه». نظر إلى فمها وسألها برقة:

– «هاربيت». ألا تريدين أن تعرفي سبب وجود سيارة والدك في الخارج؟

– إذا أردت أن تخبرني. تحركت شفتاه بكسل:

– ألا تريدين أن تعرفي أنني عدت لأصطحبك معي؟ وأنني قلت لوالديك إنني أنوي الزواج بك؟ اتسعت حدقتاها وقالت وهي تركع قربه وترمقه بشغف:

– عدت لتطلب مني هذا يا «أندريه»؟ فأجابها:

– في تلك الليلة، في البيت، قبل أن يقاطعنا «بول». لا تنكري أن حبك لي كان ظاهرًا. احمرت وجنتاها واعترفت له بحبها. فتنهد بصبر نافد وقال:

– ولكنك هربت.

– كان عليَّ أن أهرب... شعرت بالخجل. لم أثق بك ولا بنفسي.

– أوه «هاربيت»! ليتك سمحت لي بأن أوضح الأشياء... فأجابت وهي تلمس خده بأصابعها الدافئة:

– «تشارلز» فسر كل شيء بالنيابة عنك.

– أشكر الله عل وجود «تشارلز»! ثم ابتسم لها بدفء وأردف:

– لقد ذكرت شيئًا عن القهوة. فنهضت وتبعها إلى المطبخ ووقف ينظر إليها. كان قد خلع سترته فحدقت إليه وهي تفكر في أنها لم تحس بقوة حبها له مثل الآن. قال:

– لم تتعجب والدتك عندما رأتني.

– وماذا قالت؟

– سألتني لماذا أردت مقابلتك وأعتقد أن أباك أدرك قصدي.

– لكن لماذا ذهبت إلى «غيلفورد»؟

– كان المتجر مقفلا والساعة تناهز الخامسة.

– أجل، لقد أقفل «تشارلز» مبكرًا من أجل «بول».

– تذكرت أن والديك يسكنان «غيلفورد» فأخذت القطار إلى هناك. فأكملت عنه:

– ووالدي أعارك سيارته لتأتي بها إلى هنا؟

– عندما أكدت له نياتي الحسنة.

– وماذا عن «بول»؟ تنهد «أندريه»، فقالت:

– إنه يعلم بعلاقتنا.

– رآنا معًا، هل هذا ما تقصدين؟ فردت بارتباك:

– كلا... أنا... أنا أخبرته بأنني أحبك.

– بماذا أجابك؟

– لم يستغرب الأمر.

– أجل، لم يستغرب، ففي تلك الليلة... حين قصدتك لأدعوك إلى العشاء، معنا، قلت له ولـ «لويز» عن شعوري نحوك.

– أوه، «أندريه»!

– لا أحسبه صدقني. ربما لذلك أتى إلى البيت. على كل حال اختفى تلك الليلة ولم أره بعد ذلك.

– قال لي «بول» إنه أمضى تلك الليلة في القصر، وفي اليوم التالي ذهب إلى «سارلات».

– شقيقتي، أجل سمعت بذلك... «هاربيت»، أمضيت الأسبوع وأنا أبحث عنك. أردت أن أتبعك في الحال لكن ضميري لم يسمح لي. كان عليَّ أن أجد «بول» أولا. وأخيرًا لم أستطع الانتظار أكثر، وماذا وجدت؟ وجدت أنك عثرت على ابني. فصححت له بلطف:

– كلا، هو الذي عثر عليَّ. وأخبرته كيف وجد «بول» عنوانها. شرعت القهوة تغلي في الإبريق لكن «هاربيت» لم تلاحظ. قال «أندريه»:

– أريدك أن تأتي معي إلى «فرنسا»... معي ومع «بول».

– حسنا، إذا كان هذا ما تريد.

– حبيبتي، أنت تعلمين ماذا أريد بل ماذا أردت دائمًا. ولكن يجب أن أتكلم أولا عن «آيرين»...

– «آيرين»؟ زوجتك؟ تنهد قائلا:

www.rewity.com

– أجل. لن أكذب عليك بالقول إنني لم أكن أحبها. كنت أراها رائعة وكنت شابًا في مقتبل العمر... لم تظهر عليها أعراض المرض إلا في وقت لاحق.

فوضعت أصابعها على شفتيه وقالت:

– لست مضطرًا إلى إخباري... فأجابها أنه يريد ذلك، وتابع:

– أشياء كثيرة حدثت منذ تزوجنا. لقد خسر آل «روش فورت» الكثير في أثناء الثورة. كنا أغنياء والآن أصبحت مجرد مزارع.

– أتظن أن الأمر يهمني؟

– أظن أنك تحبينني...

– أجل.

– وأنا أحببتك وسأحبك حتى النهاية. هل يكفي هذا؟

– وماذا أريد أكثر؟

– هناك شيء واحد يجب أن أضيفه. إن الطبيب الذي عالج «آيرين» في ذلك الوقت قال إن الحمل زاد حالتها سوءًا.

– لا يهم هذا يا حبيبي. أجابها وعيناه تتقدان حبًا.

– الأمر مهم بالنسبة إليَّ، فلا أحتمل أن يصيبك مكروه، والحمل شيء مشؤوم في حياتي. لقد تعذبت «آيرين» كثيرًا، وأنت...

– لماذا تقول هذا يا «أندريه»؟ ألا تريد أن يكون لنا أطفال؟

– ربما. فأخفت وجهها في صدره وهمست بصوت أجش:

– حاول أن تمنعني.

– لا أحسبني أستطيع ذلك. فابتسمت ورفعت إليه وجهها المشرق بالهناء والإخلاص، بينما زينت شفتيها ابتسامة عذبة.

تمت بعون الله